وزارة الثقافة والإرشاد القومي

مديرية التأليف والترجمة

الشمس الغاربة

رواية يابانية

المؤلف اسامو دازاي

المترجم : فائز بشور

دمشق

١٩٦٥

وزارة الثقافة والارشاد القومي
مديرية التأليف والترجمة

شمس غاربة

رواية يابانية

المؤلف اسامو دازاي
المترجم : فائز بشور

دمشق
١٩٦٥

المقـــدمة

قصة امرأة من الارستقراطية اليابانية تضطر اثناء الحرب الى ترك بيتها الخاص في طوكيو لتذهب وتعيش عيشة متواضعة في دارة جبلية ، وتعمل ابنتها المجندة كازوكو في الارض . امـا ابنها ناووجي فيعود من الحرب مسمما بالعقـاقير . ويتحول الاخ والاخت الى العامية والابتذال ، ويتصلبان في وجه شدائد الدهر ويجهران بتمردهما وبأسهما .

هؤلاء هم « أناس الشمس الغاربة » . (وقد لقيت هذه العبارة، التي أطلقها اوسامو دازاي ، رواجاً في اليابان حتى اصبحت اليوم تصف أفراد الارستقراطية المنحدرين من مراكزهم حتى في المعاجم) . لقد احتفظا بأفضل تقاليد بلادهما رغم حياتهما القلقة المشوشة . وبهذا الصدد نجد وصية ناووجي تلقي الضوء بصورة مؤثرة على موقفه ازاء الحيـاة وازاء اليابان اليوم . وتريد كازوكو ولدا وحبّها للحياة ينتزع عطفنـــا رغم انحرافات سلوكها وكل الروح العدمية في تصرفاتها ولغتها . انها وحبيبها « ضحيتان لمرحلة اخلاقية انتقالية ».

ان « الشمس الغاربة » وثيقة من الدرجة الاولى عن انهيار المجتمع الياباني والحياة اليابانية المعاصرة كما انها في الوقت نفسه ـ وثيقة عن انسان تتفق الكلمة على اعتباره واحداً من اكبر كتاب بلاده .

وهذا مايضفي على لهجتها شكلا منتجـاً وذاتياً .

المؤلف :

ولد اوسامو دازاي عام ١٩٠٩ في اسرة يابانيـــة ثرية قوية وعاش حتى مماته حيـاة جنونية يائسة . كان مدمنا للمورفين والغول ومصاباً بالسل فحاول الانتحار عدة مرات . وهو مؤلف اقصوصة ممتازة بعنوان « زوجة فيون » صدرت عام ١٩٤٧ ثم روايتيه الرئيسيتين « الشمس الغاربة » و « المهتوك الستر » . (سيصدر قريباً بالفرنسية) . وكان قد بدأ رواية اخرى ذات مراحل عدة بعنوان انكليزي « غودباي » ، (أي وداعاً) . وفي ١٩٤٨ نجح اخيراً في الانتحار اذ ألقى بنفسه في مياه سد تاما غاوا الطافحة ، في طوكيو . ومن سخرية الاقدار ان جثته اكتشفت في ١٩ حزيران يوم ذكرى ميلاده التاسعة والثلاثين .

الشمس الغاربة

أرسلت أمي صرخة ضعيفة . وكانت تتناول حساءها في غرفة الطعام .
وفكرت بأن شيئا كريها قد وقع في صحنها . فسألت :

– هل هي شعرة ؟

– كلا

وحملت أمي ملعقة اخرى الى فمها كما لو أن شيئاً لم يحدث . ومن ثم التفتت جانبا ووجهت نظرها نحو شجرة الكرز التي كانت خلف نافذة المطبخ وهي في أوج ازهارها ، وتناولت وهي ماتزال ملتفتة ، ملعقة حساء اخرى وطيرتها بين شفتيها . ولأمي آداب للمائدة تختلف كثيراً عن الآداب الموصى بها في المجلات النسائية حتى أن عبارة « طيرت ملعقة الحساء » بين شفتيها ليست بالنسبة اليها تعبيراً انشائياً وحسب .

وفي أحد الأيام قال لي أخي التالي ناووجي وقد أفرط في الشراب : ان كون المرء يحمل لقباً من القاب النبلاء لايكفي لجعله أرستقراطيا . فبعضهم أرستقراطيون كبار وليس لديهم شرف آخر سوى مامنحتهم اياه الطبيعة وآخرون مثلنا نحن الذين ليس لنا سوى الالقاب ، وآخرون أيضاً هم اقرب الى المنبوذين منهم الى الارستقراطيين . أليس ايواشيا ، مثلا (وهو رفيق

ناووجي في الدراسة وكان يحب التدكير بلقبه : كونت) اكثر عامّية من أي قـوّاد في أماكن الملذات في شنجوكو (١) ؟ ألم يلبس ســـا كوراي (وهو رفيق آخر لناووجي في الدراسة والأخ الأصغر للفيكونت الذي يتغنى باسمه) هذا البهيم الشرس ، بدلة « سموكن » منذ عهد قريب ليحضر عرس أخيـــه البكر ؟ ومن ثم وحتى اذا اقتضى الأمر أن يلبس « سموكن » فليـس ذلك مبرراً لأن يلقي كلمة مضحكة ليس فيه أي شيء من الذوق الرفيـع . ولهذا بالضبط نرى اكثر الارستقراطيين يستحقون أن يسموا : « بؤساء من الطبقـة العليا » . رغم أن جدران الجامعة تحمل شعار « داخلي من الطبقة العليـــا » فالارستقراطيون الحقيقيون لا يتخذون هذا المظهر الأبله الذي يصطنعه ايواشيا. ان ماما هي الارستقراطية الوحيدة في عائلتنا . انها رمزها الحقيقي . فلها لهجة وهيئة لا يستطيع أحد منا ان يجاريها فيها .

ولنأخذ طريقة أكل الحساء مثلا . لقد علمونا أن ننحني قليـــلا فوق الصحن وأن نأخذ قليلا من الحساء مع امساك الملعقة بصورة جانبية ثم رفعهـا الى الفم مع الاحتفاظ بها جانبا . فأمنا ، من جهتها تضع أصابع يدها اليسرى برفق على حافة الطاولة وتجلس مستقيمة تماما في جلستها ، محتفظة برأسها عالياً ، وبعينيها منخفضتين بما يكفي لرؤية صحنها . انها تغمس ملعقتها في الحســـاء ، وكالسنونو ، وبما لدى السنونو من رقة ودقة حتى يصح التشبيه حقا ، ترفعها الى فمها وفقاً الزاوية المطلوبة لكي ينزلق الحساء بين شفتيها ، ثم تلقي نظرات بريئة فيما حولها وتطيّر الملعقة كجناح صغير تماما دون أن تصب أبـدا أية نقطة من الشوربا ودون أي صوت لا في بلع الجرعة ولا بقرع صحنها . ربما لم تكن هذه

---

(١) اسم حي في طوكيو (ملاحظة من المترجم).

الطريقة في أكل الحساء مطابقة لآداب المائدة ، ولكنها في نظري لطيفة تماماً ومميزة للارستقراطية نوعاً ما . وفي الحقيقة ان الحساء يبدو أفضل عندما نأكله بطريقة الماما ، أي بتجميد الجذع وحفظه مستقيما ، مما لو حدقنا في قعر الصحن. أما انا البائسة من الطبقة العليا حسب تعبير ناووجي ، والعاجزة عن تناول الطعام بالسهولة التي تتناوله بها أمنا فانني أنحني فوق صحني تبعاً للطريقة المألوفة التي تفرضها آداب المائدة .

ولأمنا طريقة في تناول الطعام (لا الحساء فقط بل سائر المأكولات ايضاً) ، تختلف كلياً عن جلسة المائدة المألوفة . فبعد ان تأخذ ماتريده من اللحم تقطع حصتها اولا قطعا صغيرة بواسطة شوكتها وسكينها ثم تنقل شوكتها الى يدها اليمنى وتشك برفق قطعة بعد اخرى . ومن ناحية اخرى ، في حين نجهد أنفسنا في تجريد عظام الدجاج دون ان « نقرقع » بالصحن تأخذ أمنا العظم بين اصابعها وتنزع لحمه بمشقة من اسنانها . فحتى الحركات البدائية الى هذه الدرجة لاتبدو لطيفة وحسب بل ومغرية بشكل غريب عندما تبدر من أمنا. غير ان امنا لاتتصرف بهذه الطريقة ازاء عظم الدجاج وحسب ، اذ يقع لها على الافطار ان تملك « الجامبون » او المقانق بأصابعها دون تكلف . وتقول احياناً « هل تعلمين لماذا نجد اقراص الرز طيبة ؟ ذلك انها تكور بالأصابع »!

فكرت احيانا ان الأطعمة تكون اطيب طعما لو اكلنا بأصابعنا ، ولكنني امسك نفسي عن ذلك ، اذ اخشى ان اصبح اشبه ببائسة عادية لا اكثر ولا اقل ، مادمت انا البائسة الارستقراطية لا اجيد تقليد أمي .

يقول اخي ناووجي اننا لسنا في مستوى امنا ، وقد شعرت احيانا بشعور قريب من اليأس امام صعوبة مجاراتها . فذات يوم في اوائل الخريف ،

وفي الحديقة خلف بيتنا في شارع نيشيكاتا ، وفي مساء مقمر جميل كنت وامي جالستين في الجناح الصيفي على ضفة البركة نتأمل القمر . كنا نضحك ونحن نروي قصة زواج الثعلب وزواج الجرذ وعما تختلف فيه الاستعـــــدادات في كل من الحالتين واذا بأمي تنهض وتنطلق الى غابة صغيرة من اشجار اللسبيديس المزهرة تقع بالقرب منا . واختبأت بين الزهور البيضاء ثم نادتني مطلقة ضحكة صغيرة :

— كازوكو ! احزري ماذا تعمل ماما الآن

— انها تقطف زهورا

فقالت بصوت منخفض وهي تضحك :

— « كع كع » !

ووجدت فيها لهجة حبيبة حقا حتى ليتعذر علي ان اقلدها .

لقد قمت باستطراد طويل منذ تناولت حساء هذا العشـاء ، غير انني علمت من كتاب قرات ان سيدات البلاط ايام الملكية الفرنسيـــة ، لم يكن يفكرن بشر لدى الترويح عن انفسهن في منتزه القصر او في احـــدى زوايا الممرات . ان هذا المقدار من البراءة ليسحرني . وتساءلت في نفسي اذا لم تكن امي واحدة من بقايا اولئك السيدات .

ومهما يكن من امر ، فقد اطلقت صرخة صغيرة « آه » وهي تبلـع حساءها ذلك الصباح : وحالما سألتها عما اذا كانت قد وجدت فيهـــا شعرة ، اجابتني بأن لاشيء من ذلك .

— ربما كنت قد اكثرت ملحها .

لقد حصلت من « الاعاشة » على علبة بازيليا من المحفوظات الاميركية وصنعت منها حساء ما . غير انني لا اثق البتة بكفاءاتي كطباخة ، رغم ان

هذه من الكفاءات النادرة التي لابد لامرأة شابة من ان تكون واثقـــة من حيازتها . وهكذا شعرت بالخيبة والأسف لهذا الحساء حتى عندما اكدت امي بأنه ممتاز . وقالت بلهجة رزينة :

ــ لقد صنعتها جيدا جدا .

وعندما انتهت من حسائها اكلت بعض كريات الأرز الملفوفة بالأشنة .

لم احب ابدا طعام الافطار ولا اشعر بالجوع قبل الساعة العاشرة . في ذلك الصباح ثبت امري لانهي حسائي ، ولكنه كان من باب الجهد ان آكل شيئاً آخر . ووضعت في صحني بعض كريات الرز بعثرتها بطرف القضيبين . واخذت منها نتفة بالقضيب ورفعتها الى سوية فمي كما تمسك امي ملعقتها لتأكل الحساء ودفعت هذه القطعة في فمي كما لو انني ازق عصفورا . وفي حـين كنت اجهد نفسي على هـــذه الصورة ، كانت امي قد انهت وجبتها ونهضت برزانة وذهبت تسند ظهرها الى الحائط الذي ادفأته شمس الصباح . وظلت هنيهة تنظر الي دون ان تنبس ببنت شفة . ثم قالت :

ــ كازوكو ، ينبغي ان لاتأكلي على هذه الصورة ، بطرف شفتيك. بل ينبغي ان تحاولي ان تجعلي من افطارك الوجبة التي تتناولينها بأحسن شهية .

ـ هل لديك شهية لافطارك ؟

ـ ليس الموضوع موضوعي انا ... فأنا لم اعد مريضة .

ـ ولكنني انا على الاخص لست مريضة .

ـ كلا ، كلا .

وهزت امي راسها بابتسامة حزينة .

قبل ذلك بخمس سنوات كان علي ان الازم سريري بسبب ذات الرئـة ، ولكنني كنت اعلم تمـاما أن ذلك المرض كان نتيجة عدم الحيطة . وبالعكس كانت امي تعاني منذ بعض الوقت ارهاقا في الاعصاب ، أي انهيارا عصبيا . ومـع ذلك لم تكن امي تقلق الا علي

وهمست متأوهة . فقالت أمي .

ـ ماذا جرى ؟

لقد كان دور أمي في هـذه المرة لكي توجه السؤال ؟

وبعد ان تبادلنا بعض النظرات القصيرة بدا لنا اننا نحيا لحظة من التفاهم المطلق . ودفعني ذلك الى الضحك ، واستنار وجه أمي بابتسامة .

وما تـكاد فكرة مزعجة مؤلة تأتيني مفاجئة حتى تخرج هذه الصرخة الصغيرة العجيبة من شفتيّ . وفي هذه المرة تذكرت فجأة ، وبفرط من الحدة ، ما احاط طلاقي من احداث لست سنوات خلت ، وانفلتت مني تلك الصرخة الصغيرة دون ان ادري . وتساءلت ، لمـاذا اطلقت أمي الصرخة نفسها منذ لحظة ؟ لايمكن ان تكون قـد تذكرت مثلي فترة مزعجة من ماضيها . كلا ومـع هذا كان ثمة سبب لهذه الصرخة الصغيرة .

ـ أي ذكرى عادت اليك منذ لحظة ياأمي ؟

ـ نسيت .

ـ هل كان ذلك بشأني ؟

ـ كلا .

ـ بشأن ناووجي ؟

ـ كلا . (واحنت امي رأسها الى جانب قالت وهي تزن كلماتها)
« ربما » .

كان اخي مايزال في الجامعة عندما سيق الى الجندية وأرسل الى جزيرة في المحيط الهادي. ولم نتلق اخباره ولم يعد رغم انتهاء الحرب . واستسلمت امي للفكرة بانها لن تراه ثانية . هـذا على الاقل ماتقوله . اما انا فلم يكن علي ابدا أن « استسلمت » اذ لم يكن يشق علي التفكير باننا سنراه حتما من جديد .

كنت اظن انني هجرت كل امل ولكنني عندما كنت آ كل حساءك اللذيذ فكرت بناووجي وتألمت كثيرا . لقــــد كان علي أن اكون معه احسن مما كنت .

فمنذ ان دخل ناووجي الى الجامعة اندفـع بتعصب في مجال الأدب ، وبدأ يحيا حياة مشوشة بكل معنى الكلمة ، ويعلم الله كم سبب لامي من العذاب . ورغم سلوك ناووجي الفظيـع فكرت امي به وهي تأ كل حساءها واطلقت صرخة الالم الصغيرة تلك . وتملكني الغضب فاكلت لقمة واحرقتني عيناي .

ـ حالته جيدة . أن ناووجي بصحة جيدة جـدا . ان الاوباش من امثال ناووجي لايموتون اما الذين يموتون فهم دائما اللطفاء ، الناعمون الجميلون . لن يموت ناووجي حتى لو سحق سحقا كالجبصين .

وابتسمت امي . وقالت غامزة مني :

ـ اذن فانا افترض انك ستموتين في سن الشباب .

ـ لماذا أنا ؟ أنا شريرة وقبيحة معا ! أنا خلقت لأعيش ثمانين عاما !

– حقا ؟ في هذه الحالة تكون امك مخلوقة لتعيش تسعين عاما !

– نعم (قلتها وانا مرتبكة بعض الشيء) .

الاوغاد حياتهم قاسية . اما الكائنات الجميلة فتموت فتية . امي جميلة ولكنني اتمنى ان تعيش طويلا وتهت لااعرف بماذا اجيب . فقلت بلهجة الاحتجاج !

– الكلام معك صعب جدا .

واخذت شفتي ترجف وسالت دموعي .

انني اتردد في سرد حكاية الحيّة . فبعد ذلك باربعة او خمسة ايام وبعد الظهر وجد اولاد الجيران حوالي دزينة من بيض الحياة مخبأة بين اوتاد سياج البستان . واكدوا ان تلك البيوض كانت بيضات افعى . وقلت في نفسي اذا اخذت دزينة من الافاعي تزحف عما قريب في خميلتنا من اشجار الخيزران ، فلن نستطيع عند ذاك ان نذهب الى البستان دون ان ننتبه شديد الانتباه فقلت للاولاد : « لتحرق هذه البيضات » وتبعني الاولاد وهم يرقصون من الفرح .

وجمعت كومة من الاوراق واغصان اليابسة قرب اشجار الخيزان ثم اشعلت فيها النار والقيت فيها بالبيضات الواحدة بعد الاخرى في اللهب . وبقيت طويلا دون ان تحرق ، عند ذلك اضاف الاولاد اوراقا وقشا لتسعير النار ، غير أن البيضات بدت وكأنها لن تحرق .

ونادتنا من فوق السياج ابنة فزعة تقف ادنى منا على الطوبق لتسألنا ماذا نعمل .

ـ نحرق بيوض افعى . وانا اخاف ان تكون هذه البيوض قدفقست .

ـ كم هو حجمها ؟

ـ بحجم بيض « الفري » تقريبا ولونها ابيض شاهق .

ـ اذن فهي بيوض حنش لاضرر منه وليست بيوض افعى سامة . ان البيوض الطازجة لاتحترق بسهولة ، كما تعلمين .

وذهبت البنت ضاحكة كأنها تسخر منا .

كانت النار تستعر منذ نصف ساعة ، غير ان البيوض لم تحترق ابدا ، عنـد ذلك قلت للاولاد ان يبتعدوا عن النيران ويدفنوا البيوض تحت شجرة الكرز ، بل انني جمعت بعض الحصى لأصنع شاهدا للقبر .

لنصلّ معا .

وركعت وضممت يديّ وركع الاولاد طيعـــين ورائي وصلّوا جامعين ايديهم . وبعد ذلك تركت الاولاد وصعدت الدرج الحجري ببطء . وكانت امي تنتظرني في اعلاه في ظل عريشة الغليسين . وقالت :

ـ لقد فعلت شيئاً في منتهى القسوة .

ـ ظننت انها بيوض افعى في حين كانت بيوض حنش بسيط غير سام . ولكني دفنتها كما يجب . وليس ثمة مايدعو للتأثر .

وادركتُ كم كان من سوء الحظ أن رأتني امي .

وأمي ليست متطيرة ولكنها تخاف خوفاً قتالا من الحيات منذ عشر سنوات ، اي منـذ ان مات والدي في بيتنا الواقع في شارع نيشيكاتا . وذلك عندما ظنت امي ان امامها حبلا صغيرا اسود قرب سـرير المحتضر ، فتقدمت

بصورة طبيعية تماماً لتمسكه وترفعه واذا بها تكتشف أنه حية انسابت في الممر واختفت هناك . ولم يرها غير امي وخالي (واذا) ، فنظر كل منهما الى الآخر ولكنهما لم ينبسا ببنت شفة خوفاً من تعكير هدوء اللحظات الاخيرة من حياة والدي. ولهذا لم نعرف انا وناووجي ، شيئاً عن قصة الحية مـــع اننا كنا في الغرفـة .

ولكنني اعـلم ، اذ انني رأيت ذلك بأم عيني ، ان الحيات كانت ، في المساء الذي توفي فيه أبي ، تلتف حول جميع اشجار الحـــديقة قرب البركة . لي من العمر الآن تسعة وعشرون عاما ، اي انني حين مات ابي منذ عشر سنوات كنت في التاسعة عشرة من عمري وبالتالي لم اكن طفلة . لقـــد مضت عشر سنوات ولكن ذكرى ماحدث آنذاك مازال واضحة تمامـا . ولا يمكن ان اخطىء . كنت آنذاك اسير قرب البركة لأقطع ازهار للجنازة . وقفت امـام ثل من ازهار الازالية وفجأة لاحظت وجود حية صغيرة ملتفة حول طرف احد الاغصان . وقد جعلني ذلك اجفل قليلا . ثم عندما ذهبت لأقطف باقة من ورد الكيريا من الزهراة المجاورة رأيت فيه ايضا حيـــة . وعلى وردة شارون التي كانت الى جانبي عنـد ساق شجرة القيقب ، وفي الجنستا وفي الفاليسين وحـول جذع الكرزة ، وعلى كل شجرة وشجيرة رأيت حية ان هذه الحيات لم تثر فيّ خوفا خاصا بل فكرت فقط بانها مثلي تبكي موت ابي وتخرج من جحورها لتكرّم روحه . وبعد ذلك عندما وشوشت امي بانني رأيت تلك الحيات في الحديقة ، ظلت هادئة ومالت برأسها قليلا وكأن ذلك قد دعاها الى التفكير ، ولكنها لم تقل لي كلمة . بهذا الشأن .

ومع هذا ، فالحقيقة ، هي ان امي تكره الحيات منذ ذينك الحادثين.

ومن الاصح القول انه منذ ذلك الحين تعتبرها موضعاً للخشية والاحترام وانها اصبحت تخافها .

وعنـــدما علمت امي بأنني دفعت الاولاد الى احراق بيوض حية ، فكرت ولا شك بأن هـذا العمل قد يجر علينا الشر . لقد ادركت ذلك بما جعلني اشعر بانني ارتكبت عملا فظيعا . وعذبني الخوف من أن اكون قـد جلبت لأمي سوء المصير حتى انني لم استطع طرد الحـادث من ذاكرتي لا في ذلك اليوم ولا في غده ولا بعد غده . وفوق هـذا افلتت مني في ذلك الصباح وانا في المطبخ تلك العبـــارة البلهاء عن الكائنات الجميلة التي تموت فتية . ولم اتمكن من استدراك تلك الجملة رغم كل مابذلته من جهد لأقول شيئاً آخر فانتهت وسط الدموع . وفيما شعرت وانا أجلي صحون الفطور شعوراً لا يطاق ، شعورا بأن حية صغيرة مخيفة ستقصر حياة امي قد انسلت في احشائي .

ورأيت في اليوم نفسه حية في الحديقة . كان الصباح جميلا صافي الاديم وبعد ان انهيت اشغالي في المطبخ خطر لي ان احمل مقعـدا من القش الى فوق العشب واحيك قليلا . وعندما هممت بالخروج الى الحديقة حاملة الكرسي بين ذراعي ،رأيت حية بين الزنابق . واقتصرت على حركة تقزز. وعدت بالكرسي الى الشرفة وجلست احيك .

وبعد الظهر بينما كنت اجتاز الحديقة ذاهبة لآخذ من المكتبة الواقعة في اسفلها مجموعة من الصور من رسم ماري لونسن، رأيت حية تنساب بطيئة بين العشب. كانت الحية نفسها التي رأيتها صباحاً ، انها حية رقيقة لطيفة . لقد كانت تجتـاز الارض المخضوضرة بهدوء وعندمـا وصلت الى ظل نسرينة توقفت وانتصبت برأسها وهزت لسانها الاشبه باللهب . كانت تبـدو وكأنها تبحث عن شيء ما ،

ولكنها بعد لحظة خفضت رأسها وانبطحت ارضاً وكأنها قد اضناها التعب .
وقلت في نفسي « يجب ان تكون انثى . عند ذلك اصبح الشعور المسيطر علي هو الشعور بجمال هذه الحية فذهبت الى المكتبة واخذت مجموعة الوسوم وفي طريق العودة القيت نظرة نحو المكان الذي رأيت فيه الحية ، ولكنها كانت قد اختفت .

وبينما كنت اتناول الشاي مع امي قبيل المساء نظرت عدة مرات ناحية الحديقة : واذا بالحية تظهر من جديد ، ببطء ، وتزحف الى الدرجة الثالثة من الدرج .

ولاحظتها امي ايضا .

– هل هي الحية ؟

قالت هذه الكلمات وقفزت نحوي وجمدت بجانبي وهي تضغط على يدي وفي مثل البرق حدست ما كانت تفكر به .

تقصدين ام البيوض ؟

ولا أعلم كيف تمكنت من التلفظ بهذه العبارة .

– نعم نعم

كان صوت امي ينم عن جهد .

وواصلنا النظر الى الزحافة وكل منا تشد على يد الأخرى ، وظللنا صامتتين وقلبانا يدقان . واخذت تتحرك من جديد وهي ملتفة بفتور فوق الحجر . ثم تحركت في تردد واجتازت الدرجة متثاقلة وانسلت بين الزقازيق فهمست قائلة :

ـ ماتزال هائمة في الحديقة منذ هذا الصباح .

وتنهدت امي وجلست متثاقلة في كرسي وقالت بصوت مفعم بالشجن :

ـ اليك حقيقة الأمر . أنا متأكدة . انها تبحث عن بيوضها . يالها من حيوان بائس . وضحكت بعصبية لانني لم اعرف ماذا اعمل غير ذلك

كانت شمس الاصيل المسلطة على وجه امي تظهر عينيها بلون أزرق تقريباً اما وجهها الذي كان يبدو وكأنه يخفي لمحة صغيرة من الغضب ، فقد كان من الجمال بحيث اشتهيت ان أطير اليها ، وبدا لي آنذاك أن وجه امي يشبه قليلاً وجه الحية البائسة التي رأيناها منذ لحظة ، ولا أدري لماذا شعرت بان الحيوان المخيف الذي كان يتلوى في احشائي قد ينتهي في يوم من الأيام الى افتراس هذه الأم ـ الحية المعذبة الجميلة .

ووضعت يدي على كتف امي الحلو الرقيق وانا اشعر باضطراب لم يكن بوسعي ان افسره .

كان ذلك في اوائل كانون الأول من السنة التي استسلمت فيها اليابان دون قيد او شرط اذا تركنا بيتنا في شارع نيشيكاتا بطوكيو لنقيم في هذا الجناح الذي يغلب عليه الطابع الصيني في ايزو . ومنذ وفاة ابي اخذ الخال وادا شقيق امي الاصغر والباقي الوحيد لها من بين اقربائها ـ يعتني بموازنة اسرتنا . غير ان نهاية الحرب غيرت كل شيء ونبه الخال وادا امي الى اننا لم نعد نستطيع الاحتفاظ بنمط الحياه ذاته . ولم يكن لنا خيار ، فكان علينا ان نبيع البيت ونسرح جميع الخدم ، وكان الافضل ان نشتري لنا في مكان ما من الريف جناحاً صغيراً جميلاً نستطيع ان نعيش فيه مرتاحين . وامي أقل منها للمسائل

المالية من طفلة صغيرة . فعندما وصف لما الخال وضعنا كان رد فعلها الوحيد أن طلبت منه ان يتخذ لنا القرارات التي يعتبرها افضل .

وفي آخر تشرين الثاني اتتنا رسالة مع ساع من خالي تعلمنا بأن دارة الفيكونت كاواتا مطروحة للبيع . كانت لهذا البيت الواقع على مرتفع طلة جميلة ويحيط به حوالي ثلاثة دونمات من الارض المزروعة . وقال ايضاً ان البقاع المجاورة له تشتهر بازهار الخوخ وان حرارته في الشتاء تعادل برودته في الصيف وخلصت رسالة الخال وادا الى القول : « اعتقد انكما ستعيشان فيه سعيدتين . وعلى كل حال ينبغي طبعاً ان تجريا مقابلة شخصية مع الفريق الآخر . فتفضلا اذن الى مكتبي غداً » فسألت :

– هل تذهبين يا امي ؟

– يجب ان اذهب . (قالتها مبتسمة وبلهجة مؤثرة تكاد لا تطـــاق واردفت) : انه يطلب مني ذلك.

وذهبت امي في غد ذلك اليوم بعد الظهر بقليل . وقد ساق بها سائقنا القديم واعادها في مساء اليوم نفسه حوالي الساعة الثامنة .

دخلت الى غرفتي وجلست واضعة يدها على مكتبي كما لو كانت على وشك الاغماء . واكتفت بالقول :

– تقرر كل شيء .

– ماذا قررت ؟

– ان أقبل كل ما ينصحنا به الخال وادا .

فقلت بدهشه :

- ولكن حتى دون ان ترى نوع البيت الريفي ؟

فرفعت امي كوعاً واسندته الى المكتب ومرت بيدهـــا على جبينها وارسلت تنهدة صغيرة .

- الخال وادا يقول انه بيت مناسب . انني اود لو انتقل اليه فوراً كما انا هنا حتى دون ان افتح عيني . ورفعت رأسها وابتسمت بضعف . وبدا لي وجهها نحيلا وجميلا جداً . وتغلبت علي ثقة امي التامة بالخال وادا فزادت عليها قائلة :

- نعم سيكون هذا حسناً .

- اذن اغمضي عينيك انت ايضاً .

وضحكنا معا ، غير أننا ما كادت تمر الضحكة حتى شعرنا بانحطاط غريب في قوانا .

ومنذ ذلك الحين كان يأتينا يومياً رجال يحزمون امتعتنا لأن عملية النقل قد بدأت . وأتى الخال وادا هو ايضاً ، وقام بما يجب ليوضع كل شيء معد للبيع جانبا . وكنت مشغولة جدامع الخادمة اوكيمي في اعمال كفرز الثياب واحراق نفاياتها في الحديقة ، ولكن امي لم تقدم لنا اية مساعدة . بل قضت ايامها في غرفتها مشتغلة باشياء لا قيمة لها .

ووجدت الشجاعة يوماً لا قول لها بلهجة جافة نوعا :

- ماذا ؟ أليست لديك اية رغبة في الذهاب الى ايزو .

- كلا - هكذا كان كل جوابها وقد بدا عليها الشرود .

اقتضى الامر عشرة ايام تقريباً لا تمام استعدادات الانتقال من البيت

وذات مساء بينما كنت احرق اوراق قـــديمة وبعض القش في الحديقة برفقة او كيمي ، خرجت امي من غرفتها وظهرت على عتبة الدار حيث ظلت واقفة تنظر الى النار . كانت ريح باردة ، ريح يضرب لونها الى الرمادي تنفخ من الجهة الغربية وتدفع الدخان على أديم الأرض . وفجأة رفعت عيني نحو وجه امي ودهشت لما رأيت كم كان لونها قاتماً ، كان اسوأ ما رأيتها عليه قط . فصرخت :

– امي سحنتك مقلوبة – فأجابت بابتسامة كليلة :

– هذا لاشيء .

ودخلت دون ضجة الى غرفتها .

ولما كانت أفرشتنا وأسرتنا محزومة في تلك الليلة فقد تمددت أو كيمي على مقعد في الطابق الاول في حين نمت مع أمي في غرفتها على فراشين استعرناهما من احد الجيران .

وقالت لي أمي بصوت ينم جرسه عن الشيخوخة والضعف لدرجة أخافتني :

- أنا أذهب الى ايزو لأنك معي ، لانني ملزمة بك .

وأهبلتني هذه الملاحظة غير المتوقعة . فسألتها بالرغم مني :

- وماذا كنت ستفعلين لو لم أكن معك ؟

وذابت أمي فجأة في دموعها وقالت :

– لم يكن لدي ماأفعله أفضل من الموت . كنت أتمنى ان أموت في هذا البيت الذي توفي فيه والدك .

كانت تتكلم بصوت متهدج باكية بتشنج متزايد .

لم تكلمني أمي قط بمثل هـــذا الصوت الضعيف ، ولم تدعني قط أرى

دموعها بمثل هذا الاستسلام حتى عندما اسلم ابي الروح ، ولا عندما تزوجت ، ولا عندما عدت حبلى الى أمي ، ولا عندما ولدت طفلاً ميتاً في المستشفى ،ولا بعد ذلك عندما مرضت وبقيت مدة طويلة في السرير ، ولا عندما ساء سلوك ناووجي ... انها لم تظهر قط مثل هذا الضعف . فخلال السنوات العشر المنقضية منذ وفاة والدي ، حافظت أمي على نشاطها ولطفها وبشاشتها كما عندما كان حياً . وبفضلها شببت وناووجي دون أدنى هم مادي . اما الآن فقد تهدمت أمي . لقد انفقت علينا كل ما كان معها ، على ناووجي وعلي أنا دون ان تضن علينا بين[1] واحد وأرغمت على ترك البيت الذي قضت فيه السنين الكثيرة لتبدأ حياة بؤس في جناح دون أية خادمة . فلو كانت أمي مقتصدة وشحيحة ، ولو انها ربتنا بصرامة او كانت من ذلك النوع من الأشخاص الذين يسعون سراً الى زيادة ثروتهم ، لما تمنت الموت أبداً على هذا النحو مهما تأتي عليها من صروف الدهر . ولأول مرة في حياتي تحققت أي جحيم يمثله الإملاق ، أي جحيم رهيب يستحق الرثاء ، أي جحيم دون أمل وامتلأ قلبي تأثراً ولكنني كنت من القلق بحيث لم تسعفني الدموع . وتساءلت اذا كان هذا الشعور الذي أحسست به عند ذلك هو الشعور الذي يقصده الناس بعبارتهم المألوفة : « كرامة النفس البشرية » ، وتراميت مستلقية لا أستطيع حراكاً وجسمي يابس كالحجر وعيناي مسمرتان الى السقف .

وفي اليوم التالي بدت أمي مريضة حقاً كما توقعت لها . كانت تعبث بهذا الشيء او بذاك كما لو كانت كل دقيقة تبقى لها في البيت ثمينة . غير ان الخال واد أتى ليقول لنا ان علينا ان نذهب في ذلك اليوم نفسه الى ايزو . كانت جميع

(١) البين : عملة يابانية .

الحقائب تقريباً قد ذهبت . وارتدت امي معطفها بصورة يبدو عليها عدم الرضى ودون ان تنبس ببنت شفة حَيت أو كيمي وسائر خدمنا الذين أتوا لوداعنا وغادرت البيت الواقع في شارع نيشيكاتا .

كان القطار فارغاً نسبياً واستطعنا ان نجد فيه أمكنة لنا . كان خالي مرح المزاج يردد من حين الى آخر مقطوعات من الشعر الغنائي . وكانت أمي بشحوبها وطرفيها الغضيضين تبدو مرتعدة الفرائص . وفي ناغاووكا نزلنا لنستقل سيارة كبيرة ، بعد ان جرت بنا ربع ساعة تقريباً ، غادرناها وذهبنا مشياً نحو الجبال . تسلقنا مرتفعاً يتزايد ارتفاعه رويداً رويداً حتى بلغنا قرية ينتصب على مدخلها جناح صيني الطراز بني بشيء من الذوق . فقلت وأنا ماأزال الهث من الصعود :

– ان المكان مستحب اكثر مما تصورت ياامي .

وتوقفت أمي امام مدخل الجناح وأجابت وقد لمع في عينيها وميض سعادة :

– نعم انه مسر :

وأعلن خالي وقد بدا عليه السرور باكتشافه :

– قبل كل شيء الهواء طيب ، انه هواء نقي .

فقالت أمي مبتسمة .

– هذا صحيح . انه لذيذ . ان الهواء لذيذ هنا .

وانطلقنا ثلاثتنا في الضحك

وفي داخل البيت وجدنا عفشنا الواصل من طوقيو . وكانت امام البيت صناديق منضدة بعضها فوق بعض .

— ثم ان الصالة تطل على منظر جميل .

وغمر الشعور بالراحة خالي،فأدخلنا اليه وأجلسنا نتأمل المنظر الشامل.

كان الوقت قد قارب الثالثة بعض الظهر وشمس الشتاء تغمر عشب الحديقة برفق . وعند اسفل الدرج النازل على العشب ، كانت بحرة صغيرة محاطة باشجار الخوخ ، وفيا وراء الحديقة جنينة من البرتقال اليوسفي وطريق قروي وحقول أرز وغابة صنوبر ،وفي البعد يستشف الناظر البحر .ولاحظت وانا اجلس في الصالة ان البحر كان على مستوى صدري .

وقالت امي بلهجة محزنة :

— انه منظر هادي .

واجبتها بمرح زائد :

— يجب ان يكون هذا السبب الهواء . إن النور هنا يختلف كليا عنه في طوكيو ، اليس كذلك ؟ حتى كأن الاشعة تمر عبر الحرير .

كان الطابق الارضي يضم غرفتين مساحة الواحدة عشرة حصيرات والثانية ست حصيرات (١) وغرفة استقبال على النمط الصيني وممر وحمام ثم غرفة الطعام والمطبخ . وفي الطابق الاعلى غرفة اجنبية الطراز فيها سرير كبير . كان هذا كل شيء ولكنني قلت في نفسي ان هذا البيت لن يكون ضيقا جدا علينا نحن الاثنتين ولا علينا نحن الثلاثة اذا عاد ناووجي .

وذهب خالي ليطلب لنا مانأكله غداء من النزل الوحيد في القرية . فأتوا

---

(١) الحصير هنا قياس مساحة ١٨٠ سم . وعرض ٩٠ سم فتكون مساحة الغرفة الاولى لتزيد عن ١٦ مترا مربعا والثانية دون العشرة امتار مربعة (المترجم).

لنا بوجبة من طعام بارد رتبها في الصالة وبدأنا نتناول غداءنا البسيط ونعشه بالويسكي الذي احضره معه واستخفه المقام فأخذ يروي لنا مغامراته في الصين مع الفيكونت كاواتا صاحب البيت سابقـــاً . ولم تأكل امي الا من طرف الشفتين ، وبعد الطعام همست وكان الليل قد بدأ يرخي سدوله :

ـ اود ان اتمدد قليلاً .

فأخرجت عدة أفرشة من الأمتعة وساعدت امي على وضعها في مكانها واقلقتني سخنتها الى درجة ان اتيت بميزان الحرارة لآخذ حرارتها فكانت ٣٩ درجة .

وبدأ خالي نفسه مضطرباً . وعلى كل حال ذهب الى القرية بحثا عن طبيب . وحاولت ان اكلم امي ولكنها لم ترد بشيء سوى انها هزت رأسها وقد فقد وجهها كل تعبير وحياة .

وعند ذلك ضغطت يد امي الصغيرة في يدي واخذت انتحت . كانت تثير الشفقة بل تثيرها بشكل رهيب ... او على الاصح كنا معا نستحق الشفقة ولم تتوقف دموعي . وفكرت وانا ابكي بانني اتمنى الموت حالا مع امي ، وانه لم يبق امامنا ما نأمله ، واننا كنـــا كميتتين منذ ان غادرنا بيتنا في شارع نشيكاتا .

وعاد خالي بطبيب القرية بعد حوالي ساعتين . كانت على هذا الطبيب ملامح الشيخوخة تقريباً ويرتدي بزة يابانية رسمية وقديمة الى حد ما .

ـ وقد يتحول هذا الى ذات الرئة ، ولكن حتى اذا ظهرت ذات الرئة بوضوح فليس ثمة ما يدعو الى القلق .

وبعد هـــذا التشخيص الاقرب الى الغموض حقن امي بابرة واستأذن بالانصراف .

ولم تهبط الحرارة في اليوم التالي على كل حال اعطاني خالي الفي ين (١) وامرأ بان ابرق اليــه اذا اقتضى الامر نقل امي الى المستشفى ثم غادرنا الى طوكيو .

واخرجت من الامتعة اقل ما يمكن من اواني المطبخ الضرورية وطبخت حساء شفيفاً . فتناولت والدتي ثلاث ملاعق منه ثم هزت رأسها . وقبيل الظهر عاد الطبيب ، كان هندامه هذة المرة اقل فخامة ولكنه كان ايضاً يلبس قفازيه الأبيضين .

واقترحت بأنه ربما كان من الافضل ان آخذ امي الى المستشفى . فقال الطبيب :

— كلا انا لااعتقد ان هذا ضروري. اليوم سأحقنها بعلاج قوي وغداً تنزل الحرارة على الارجح .

لم يكن جوابه اكثر طمأنة منه في اليوم السابق . ثم ذهب حالما انتهى من اعطاء امي « الحقنة القوية » .

وبعد الظهر تلون وجه امي بأحمر قانٍ واخذت تتنفس بسرعة . ربما كان ينبغي ان ارى في ذلك مفعول الحقنة العجائبي. وبينما كنت اغير لها قميص النوم قالت :

— من يعلم ، ربما كان هذا الرجل طبيبا عظيما !

---

(١) ين عملة يابانية (المترجم)

كانت حرارتها قد نزلت الى حدها الطبيعي . وكنت سعيدة الى درجة اني ركضت الى القرية واشتريت من صاحبة النزل دزينة من البيض . وقليت بعضها فوراً وقدمتها الى امي . فأكلت منها ثلاثا وقبلت تتناول نصف طاسة من الرز .

وفي اليوم التالي عاد الطبيب العظيم مرة اخرى في هندام رسمي . وبينما كنت اشكره على نجاح زرقته هز رأسه بوقار وكأنه يقوله « هـذا ماتوقعته بالضبط » . وفحص امي بعناية ثم التفت نحوي وقال :

ـ ان امك قد شفيت تماما . فهي اذن تستطيع ان تأكل وتعمل كل ماتريده .

كانت طريقته في الكلام فريدة الى درجة انني لم اتمالك عن الضحك . ورافقته حتى الباب وعندما عدت الى غرفة امي وجدتها جالسة في سريرها .

ـ حقا انه طبيب عظيم . لم اعد مريضة . قالت ذلك وكأنها تتكلم شاردة اللب او كما لو كانت تكلم نفسها غير ان مسحة بالغة السعادة كانت تبعث الحياة في وجهها .

ـ هل تريدين ان افتح « الشوجي » [1] ياأماه ؟ انها تثلج !

كانت جوالح ثلج خفيفة تتساقط بهدوء كأنها تويجات الزهور . وفتحت الشوجي وجلست الى جانب امي اتأمل الثلج . ثم اعادت امي القول وكأنها ماتزال تحدث نفسها لوحدها :

ـ لم أعد مريضة . فعندما أكون بجانبك كما أنا الآن يبدو لي أن كل

---

(١) الشوجي حاجز جرار يفصل الغرفة عن الخارج . (ملاحظة من المترجم) .

ماحدث لنا ليس سوى حلم ثقيل . الحقيقة انني عندما أقتضى الأمر ان انتقل من بيتي شعرت بالفكرة بشعة مخيفة . كنت مستعدة لأعطي أي شيء لأقضي يوماً او نصف نهار آخر في بيتنا بشارع نيشيكاتا . كنت أشعر بنفسي نصف ميتة عندما اقتضى الأمر ان أركب القطار .. وعندما وصلت الى هنا وقضيت الهنيهات القليلة الاولى ظننت ان قلبي سينفجر حنيناً الى طوكيو وخاصة عندما بدأ الليل يرخي أستاره . ثم اختلط كل شيء امام عيني . فليس ماحدث لي مرضاً عادياً. لقد أماتني الله ، وأعادني الى الحياة بعد ان حولني الى شخص مختلف تماماً عما كنت عليه .

ومنذ ذلك اليوم حتى الآن نجحنا بهذا القدر أو ذاك في مواصلة حياتنا المنعزلة في هذه « الدارة » الجبلية . وأظهر أهل القرية نحونا لطفاً وحسن معشر. اننا نحضر طعامنا ونحيك بالصنارة تحت الرواق ونقرأ في الصالة الصينية ونشرب الشاي ... أي بتعبير آخر نحيا حياة رتيبة في عزلة تامة تقريباً عن العالم. وفي شهر شباط غمرت القرية كلها بأزهار الخوخ. وتوالت ايام هادئة دون رياح في أواخر آذار وبقيت الاغصان مزهرة حتى آخر الشهر .

وفي اية ساعة من ساعات النهار كنا ننظر فيها الى تلك الازهار كانت تفاجئنا بجمالها ، وكان شذاها يعطر الغرفة حالما تفتح الابواب الزجاجية المطلة على الشرفة . وحوالي آخر آذار كانت الريح تهب كل مساء ، وعند الغسق كانت تويجات الزهور تدخل من النافذة الى غرفة الطعام حيث نتناول الشاي وتتساقط في الفناجين . والآن ، في شهر نيسان عندما نجلس تحت الورق ونحيك بالصنارة، يدور حديثنا عموما حول المشاريع التي نضعها لزراعة الحقول. وتقول أمي انها تريد ان تسهم في ذلك بيديها . وحتى عندما أروي هذه الاقوال

استعيد التفكير باننا، كما قالت ،متنا لنبعث الى الحياه بشكل اشخاص آخرين. ومع هذا فاننا لا اعتقد بأن قيامة كقيامة المسيح أمر ممكن بالنسبة لبشر عاديين . وعندما تحدثني امي عن هـــذا التحول كان يبدو عليها انها نسيت الماضي ، ولكنها مـع ذلك عندما كانت تذوق حساءها هذا الصباح فكرت بناووحي واطلقت تلك الصرخة الصغيرة . واما بالنسبة الي كذلك فان جراح الماضي لم تندمل .

آه ، كم كنت اتمنى ان انقل كل شيء ببساطة ودون اخفاء اي شيء ! واحيانا افكر في سري ان هدوء هذه « الدارة » الجبلية ليس سوى كذب وخداع . فحتى لو سلمنا بأن الله يمنحني وامي فترة قصيرة من الراحة ، فانا لا استطيع ان اتجنب الشعور بان ظلا اسود خطرا اخذ يحوم حولنا ويقترب . ان امي تتظاهر بانها سعيدة ، ولكنها تزداد نحولا كل يوم . وفي احشائي افعى متطوقة تسمن على حساب امي وتنمو رغم كل جهد ابذله لخنقها . عسى ان يكون هذا الشعور عابرا دون ان يعني شيئاً ! ان كوني استطعت ان اقترف عملا من الدناءة بحيث احرق بيوض حية يدل في اية حالة انا . ان كل ما اعمله يبدو وكانه لايؤدي الا الى جعل امي اعمق تعاسة واكثر ضعفا .

اما الحب ... كلا ، بعد ان كتبت هذه الكلمة يتعذر علي ان اتابع .

— ٢ —

وتوالت اثناء الأيام العشرة التي تلت حادثة بيوض الحية سلسلة من حوادث الشؤم لتشدد من تعاسة أمي وتقصر من حياتها .

تسببتُ في بداية حريق .

لقد اشعلت بالنار . ومنذ طفولتي حتى الآن لم يراودني التفكير قط حتى في الحلم بأن شيئاً رهيباً الى هذه الدرجة يمكن ان يحدث لي .

فعندما لايولي المرء أية أهمية للنار يضرم النار . كان ينبغي أن أكون قد رُبّيتُ « كأميرة » حتى لاأعير أي إنتباه الى تلك الحقيقة الأولية .

فقد نهضت في تلك الليلة لأذهب الى المرحاض عندما رأيت لدى وصولي أمام الممر ان الحمام مضاء . وألقيت نظرة واحدة جعلتني ألاحظ ان باب هذه الغرفة الزجاجي كان أحمر حامياً وسمعت في الحال أطيطاً مسؤوماً . واندفعت نحو باب البيت وخرجت راكضة حافية القدمين . ورأيت عند ذاك ان الحطب المكدس كاحتياطي لموقد الحمام قد تحول الى جمر .

فطرتُ الى المزرعة الواقعة في أسفل حديقتنا وطرقتُ الباب بكل قواي :

ـ سيد (ناكاي) ! النار ! النار ! إنهض سريعاً ! النار تشتعل في بيتنا !

كان يجب ان يكون السيد ناكاي قد نام ولكنه أجاب من داخل البيت :

ـ أنا آت حالاً .

وكنت أواصل استعجاله ليأتي بسرعة عندما هرع وخرج في ثياب النوم . وركضنا قفزاً حتى النار . وفي اللحظة التي بدأنا نصب فيها سطولاً من

الماء نأخذها من البركة . سمعتُ أمي تنادي من الرواق الذي يقع قبل غرفتها فتركت الماء من يدي وصعدت الى الرواق وأخذتُ أمي بين ذراعي – كانت على وشك الإغماء .

– ماما أرجوكِ ، لا تقلقي . كل شيء على مايرام . عودي الى النوم بسرعة .

وأعدتها الى سريرها ، وبعد ان اقنعتها بأن تبقى هادئة ، عدت راكضة نحو النار . واخذت الماء هذه المرة من الحمام وأعطيته الى السيد ناكاي ليقذفه على كومة الحطب المشتعل . غير ان النار كانت من القوة بحيث لم تكن لنتوصل أبداً الى إطفائها بهذه الطريقة .

ومن اسفل الحديقة سمعت من يصيح :

– الى النار ! النار في الدارة !

وفجأة اجتاز اربعة او خمسة رجال السياج وهرعوا نحونا . ولم يقتضهم الامر سوى بضع دقائق لينظموا سلسلة ويقذفوا بسطول الماء حتى انطفأت النار ولو دام الحريق اكثر من ذلك بقليل لانتشر اللهيب حتى سقف الحمام . « حظنا طيب ! » هذه كانت اول فكرة راودتني ولكنني بعد ذلك فوراً ارتعبت عندما انتبهت الى ما سبب النار . عند ذلك فقط ادركت ان الكارثة اتت من انني بعد ان أخرجت بقايا الحطب من موقد الحمام في مساء الأمس وضعتها قرب كدس الحطب ظنا مني بانها مطفأة تماماً . لقد جعلني هذا الاكتشاف أتمنى لو أذوب دموعاً . كنت مسمرة في مكاني عندما سمعت ابنة البيت المقابل تقول بصوت مرتفع :

– يجب ان يكون قد وقع اهمال لدى تفريغ الموقد . ان هـــذا

يسبب أضراراً كبيرة ! كان رئيس بلدية القرية والشرطي ورئيس فوج الاطفاء في عداد من هرعوا . وسأل رئيس البلدية بوجهه اللطيف الباسم دوماً :

– لا بد انكم خفتم خوفاً رهيباً . فكيف حصل ذلك ؟

– انها كلياً غلطتي أنا . ظننت ان الحطب المسحوب من النار كان مطفأ .

لم استطع أن اقول زيادة في الموضوع واخذت دموعي تسيل وبقيت مسمرة في مكاني معقودة البلعوم غضيضة العينين . فكرت عند ذاك ان الشرطة يمكن ان توقفني وتجرني كمجرمة ، وفي اللحظة نفسها انتبهت الى مظهري غير اللائق لدرجة مخجلة بقدمي الحافيتين وثياب النوم . فانكسفت وضاقت بي الدنيا .

وسألني رئيس البلدية بهدوء وبلهجة العطف :

– فهمت . هل امك بصحة جيدة تماماً ؟

– انها تستريح في غرفتها لقد كان الانفعال رهيب الأثر عليها .

وقال الشرطي الشاب وهو يحاول تشجيعي وتعزيتي :

– على كل حال من حسن الحظ أن البيت لم يحترق .

وفي ذلك الحين عاد المزارع السيد ناكاي بعد أن غير ملابسه وصاح بصوته :

– لم كل هذه القصص ؟ بالكاد احترق قليل من الحطب . ليس هذا من الحريق في شيء .

كان يحاول طبعا أن يخفف من اثر طيشي الأبله .

وقال رئيس البلدية وهو يهز رأسه :

- أنا من رأيك تماما .

وتحدث قليلا مع الشرطي ثم قال :

- لم يبق لنا الا أن ننسحب . تفضلي بتقديم احتراماتي لأمك .

وابتعد الجميع الا الشرطي الذي تقدم نحوي وهمس بصوت منخفض :

- لن اصرح بما حدث هذه الليلة .

وعندما دار كعبيه اتى السيد ناكاي ليسألني بصوت مضطرب عما قال لي الشرطي . فأجبته :

- وعدني بأن لايقدم تقريراً رسميا .

من المرجح أن الجيران الذين بقوا حولي سمعوا جوابي اذ انهم بدآوا ينسحبون شيئاً فشيئاً معربين بصوت منخفض عن ارتياحهم. وعاد السيد ناكاي بدوره فتمنى لي ليلة سعيدة وعاد الى بيته . عند ذلك بقيت وحدي مشدوهة الى جانب كومة الرماد . ورفعت عينيّ الدامعتين نحو السماء فرأيت اول تباشير الفجر .

وعدت لأغسل يديّ ورجليّ ووجهي ولكنني تأخرت عمدا في الحمام وأنا اسرح شعري واعيد تسريحه تخوفا من فكرة مواجهة امي . ثم انتقلت الى المطبخ حيث قتلت الوقت حتى بزوغ النهار في القيام بترتيبات لافائدة منها البتة بين ادوات المطبخ .

وبعد ان عدت بخطى الذئب الى غرفة امي وجدت انها كانت لابسة كل ثيابها وقد جلست في مقعد وقد بدا عليها الاجهاد حتى الانهيار . ابتسمت عندما رأتني ولكن وجهها كان شاحبا شحوب الموت .

بقيت صامتة امام مقعدها غير قادرة على رد ابتسامتها . وبعد هنيهة قصيرة قالت أمي :

ـ ليس هذا أمراً خطيراً، أليس كذلك؟ كان هذا الحطب مخصصاً للحرق.

وغمرتني موجة من السعادة . تذكرت مدرسة الاحد ايام طفولتي وآية التوراة القائلة : « ان كلمة تقال في موضعها تفعل فعل تفاحات من ذهب على طبق من فضة » ومن صميم قلبي شكرت الله على السعادة التي انا مدينة بها لأم مفعمة بالحنان الى هذا الحد .

وبعد ان انتهيت من تناول فطور خفيف ، شرعت في العمل ورتبت كُدْسَ الحطب المفحم . وهرعتْ أوساكي، صاحبة نزل القرية، من باب الحديقة :

ـ ماذا حدث ؟ لقد سمعت لتوي بالخبر . . ماذا حدث هذه الليلة ؟

ـ كانت دمعتان تتلألآن في عينيها .

وهمستُ مضطربة :

ـ آسفة

ـ ليس لك ان تعتذري . ماذا فعل الشرطي ؟

ـ قال انه لن يأخذ ذلك بالحسبان .

ـ آه ، ياله من حظ !

وبدت سعيدة حقاً بذلك .

وناقشتُ مع اوساكي طريقة الاعراب عن امتناني واعتذاري من أهل القرية . فنصحتني بأن ادفع لهم بعض دريهات وذكرت لي اسماء من استطيع أن ازورهم مقدمة لهم بعض الدراهم مع اعتذاري . واضافت أخيراً قولها :

اذا كان يزعجك القيام بالدورة لوحدك فسوف ارافقك .

ـ من الأفضل أن اكون وحدي ، أليس كذلك ؟

ـ هل في استطاعتك ؟ اذا كان بامكانك فهذا افضل .

ـ سأذهب لوحدي .

ثم ساعدتني اوساكي قليلا على اعادة ترتيب الاشياء المحروقة .

وبعد أن انتهيت من تصفيف الحطب طلبت من أمي أن تعطيني بعض المال . وجعلت منه صرراً صغيرة في كل واحدة مئة ين وكتبت على كل صرة هذه الكلمات : « مع كل اعتذاري » .

ذهبت أولا الى دار البلدية . كان الرئيس غائبـــاً فأعطيت الصرة الى الكاتبة وقلت :

ـ ان مافعلته الليلة الماضية أمر لايغتفر ، ولكنني من الآن فصاعـداً سأكون أكثر انتباهاً . أرجو أن تسامحيني وتنقلي اعتذاري الى رئيس البلدية .

ثم ذهبت لعند قائد فوج الاطفاء . وأتى بنفسه ليفتح لي الباب . وابتسم لي ابتسامة صغيرة حزينة ولكنه لم يقل شيئاً . ولا اعلم لماذا انهمرت دموعي .

ـ سامحني عن الليلة الماضية ...

واستأذنت سريعاً بالانصراف وانطلقت راكضة في الشوارع ووجهي غارق في الدموع . كانت سحنتي مقلوبة الى درجة أنني عدت الى البيت لأستعيد رباطة جأشي . وكنت على وشك الذهاب مرة ثانية عندما ظهرت أمي سائلة :

ـ ألم تنتهي بعد ؟ الى أين تذهبين الآن ؟

فأجبتها دون أن أرفع رأسي :

– ما كدت أبدأ .

– أنت تتعبين نفسك كثيراً .

كان صوت أمي عطوفا حار العطف . كان يلزمني حنانها لتمنحني القوة حتى أقوم بما بقي علي من زيارات دون أن أبكي في هذه المرة .

وعندما وصلت الى رئيس القطاع لم أجده ، كان غائبا . فأتت كنّته اليّ وعندما رأتني أخذت هي تبكي . فقال لي الشرطي : « كل شيء جرى كما يلزم ، كل شيء على مايرام » . بدا الجميع متألمين لألمي . ولم يسيء استقبالي سوى زوجة السيد نيشياما الشابة (أقول « الشابة » ولكنها تقارب الأربعين عاما) .

– أنصحك بأن تكوني حذرة في المستقبل . ربما كنت من طبقةالنبلاء على ما أعلم ، ولكنني لاحظتكما وهناك مايجعل الانسان يرتجف عندما يراكما . حتى ليظن أنكما طفلتين تلعبان بادارة بيت . انها لأعجوبة حقا انكما لم تسببا حريقا حتى الآن نظراً لاهمالكما . أرجوك أن تنتبهي من الآن فصاعدا . لو هبت الريح في الليلة الماضية لاشتعلت القرية كلها .

وجدت انني استحق توبيخ السيدة نيشياما . فان ماقالته كان صحيحاً تماماً . ولم يكن لي ان احنق عليها لأنها وبختني . ارادت امي ان تعزيني بمزاحها حول الحطب الذي كان مخصصاً للحريق ولكن ريحاً قوية لو هبت لنقلت النار الى القرية كلها كما قالت السيدة نيشياما . وفي هذه الحال ، حتى لو انتحرت لما كان هذا القصاص كافياً ، ولم يكن موتي ليسبب موت والدتي وحسب بل

كان لوث ذكرى والدي . انا أعلم ان الارستقراطية لم تعد كما كانت ، ولكنها اذا كان لا بد لها من الهلاك على كل حال ، فأنا أتمنى ان تسقط باكثر ما يمكن من اللياقة . ولن أتمتع بالراحة في قبري لومت تكفيراً عن حريق اشعلته .

وبدأت منذ الغداة أبذل قواي في عمل الحقول . ان ابنة السيد ناكاي تساعدني أحياناً ، ومنذ العار الذي ارتكبته اذ كدت اسبب حريقاً ، وأنا اعتقد احياناً اني اشعر بأن دمي اغمق لوناً نوعاً ما واني اصبح اكثر فأكثر كل يوم ريفية غليظة . فعندما ابقى جالسة مثلاً على المصطبة لأحوك بالصنارة مع أمي احس بانزعاج غريب فاذهب بنوع من تخفيف الهم لاعمل في الأرض .

انني احب ، مايسمى ، على ما اعتقد ، بالعمل اليدوي . وليست هي اول مرة اقوم فيها بمثل هذا العمل . فقد جرى تجنيدي ايام الحرب بل وقمت بعمل « الكولي »[1] والحذاء الذي البسه الآن للعمل في الحقول هـــو نفس الحذاء الذي اعطاني اياه الجيش . ان هـذا النوع من الاحذية جديد بالنسبة الي ، لكنه مريح بصورة مدهشة . وعندما اجوب الحديقة وانا احتذيه يبدو لي انني ادرك خفة قلب العصفور او الحيوان الذي يسير على الارض حافي القدمين . انها الذكرى الوحيدة اللذيذة التي احفظها للحرب ! الحرب ! يالها من مغامرة مفجعة !

في العام الماضي لم يحدث شيء .
وفي العام الاسبق لم يحدث شي .
وفي العام الذي سبق الاسبق لم يحدث شيء .

---

(١) الكولي Coolie : عامل في احدى المستعمرات في الصين واليابان وقـــد اشتهر بالصبر والجلد (المترجم) .

هذه القصيدة المسلية عن الاثر الذي يمكن أن تتركه الحرب ، نشرت في صحيفة بعد نهاية القتال تماماً . لاشك ان الحرب اثارت احداثاً كثيرة ، اما الآن ، عندما احاول أن اتذكرها فانني احس بالشعور التالي : لم يحدث شيء فوق العادة . أنا اكره الحديث عن الحرب او ان اسمع اناساً يرددون ذكرياتهم عن الحرب . لقد سببت ضحايا كثيرة . كانت مأساة رهيبة ، ولكن هذه الفكرة بشعة في نظري . يمكن القول ان وجهة نظري انانية جداً . ذلك ان تجنيدي وعمل « الكولي » الذي أمرت به جعلاني أرى الحرب من غير ناحيتها الفاجعة . كثيراً ما كنت العن شغل « الكولي » هذا ، ولكنه جعلني قوية البنية ، وحتى الآن افكر احيانا انني اذا اضطررت الى كسب رزقي فأكون قادرة على القيام باعمال يدوية ضخمة .

ذات يوم ، وكانت الحرب قد دخلت آنذاك في مرحلة ميؤوس منها حقاً ، أتى رجل يلبس بزة عسكرية الى بيتنا في شارع نيشيكاتا ، ومد الي أمر تجنيد، ثم لائحة الايام التي كان يجب علي ان اشتغل فيها. وهكذا علمت انه ينبغي علي منذ اليوم التالي ان اقضي من كل يومين يوماً في معسكر عند حضيض الجبال التي ترتفع وراء طاشيكاوا . فانهمرت دموعاً مني .

ـ اظن انني استطيع تكليف من ينوب عني .

وعجزت عن امساك دموعي فاسترسلت في النحيب .

واجاب الحاجب بصرامة :

ـ الجيش يطلب منك ان تشتغلي . فيجب ان تشتغلي بنفسك .

وفي اليوم التالي وتحت المطر ، خطب فينا ضابط عندما كنا واقفين في الصف ، عند حضيض الجبل فقال كمقدمة :

ـ النصر اكيد ، النصر اكيد الا انه ينبغي ان ينصاع كل فرد منا بدقة لأوامر الجيش والا فجميع الخطط ستنهار وسنقع في او كيناوا اخرى . ينبغي ان تنجزوا المهمة الموكولة اليكم دونما خطأ وفي ادق تفاصيلها . ومن جهة كونوا على اهبة الحذر ، احذروا بعضكم . فلا يمكننا ان نضمن عـــدم تسلل بعض الجواسيس بينكم. انكم ستشتغلون في مراكز عسكرية كالجنود تماماً ونحن نعتمد عليكم في المحافظة على اقصى درجات الحذر وان لا تطلعوا احداً في اي حال على ما ترونه .

كان الجبل ينحسر تحت المطر وراء البضعة خمسمئة رجل وامرأة الذين كنا هناك ، ولكننا رغم سيول المطر أصغينا الى هـــذا الخطاب بالاحترام المتوجب له . وكانت الوحدة تضم أيضاً صبياناً من الصفوف المتوسطة وجميعهم ذو وجوه صغيرة متجلدة قريبة جـداً من الدموع . واخترق المطر معطفي ثم سترتي وتغلغل أخيراً الى ثيابي الداخلية .

قضيت النهار كله انقل على ظهري سلالاً من التراب ، ولم أستطع إمساك دموعي عندما عدت في القطار الكهربائي . وبعد غد ذلك اليوم ربطت نفسي مع آخرين بحبال لنجر المحراث ، كانت تلك هي المهمة التي أفضل .

وساورني الشعور مرتين أو ثلاث مرات بينما كـنت أعمل عند كعب الجبل بأن التلاميذ كانوا ينظرون إلي شذراً . وذات يوم ، كنت أحمل سلالاً من التراب على كتفي مر اثنان من هؤلاء التلاميذ بالقرب مني وسمعت أحدهما يوشوش :

ـ أتظن انها جاسوسة ؟

واذا أدهشني ذلك سألت رفيقتي في السخرة لماذا يقول هذا الغلام قولاً كهذا . فأجابت بوقار :

– ربما لأن مظهرك ليس كمظهر الآخرين .

حقا ؟ هل تظنين أنت ايضا انني جاسوسة ؟

– كلا ، ولكنها اجابت هذه المرة بابتسامة صغيرة . فقلت :

– « انا يابانية » دون أن اتمالك نفسي عن الضحك من بلاهة هـذه الكلمات اذ كانت حقيقتها تبدو لي من الوضوح بمكان .

وذات صباح جميل بينما كنت أقضي الصبيحة كداً في جر جذوع حطب مع الرجال ، قطب الضابط الشاب فجأة حاجبيه واشار الي قائلًا :

– هيه ! انت ! تعالي . اتبعيني .

ذهب نحو غابة الصنوبر وتبعته وقلبي يخفق خوفـاً وانفعالاً . ولما وصل أمام كومة الالواح التي أتوا بها توا من المنشرة ، توقف وقال لي :

– لابد أن من الشاق عليك أن تقومي دائماً باشغال قاسية كهذه . اليوم ستناظرين هذه الكومة من الخشب .

كان يتكلم بابتسامة جعلت اسنانه البيضاء تلتمع .

– أتطلب مني بأن ابقى هنا ؟

– الجو هنا رطب وسوف تكوني مطمئنة وستتمكنين من القيلولة في أعلى الكدس . واذا ضجرت فربما أحببتِ أن تقرئي هـذا . (واخرج من جيبه مجلداً صغيراً ووضعه بمجاء على الالواح) . ليس هـذا كتاباً كبيراً ولكن اقرئيه اذا شئت .

كان عنوان الكتاب « ترويكا » . وأخذته .

— شكراً جزيلا . ان في اسرتي شخصاً يحب القراءة كثيراً ، ولكنه حالياً في جنوب المحيط الهادي .

واختلط الأمر على الضابط :

— آه ! زوجك جنوب المحيط الهادي . شيء رهيب (وهز رأسه علامة عطف) . على كل حال ، واجبك اليوم ان تقومي بالحراسة هنا. وسوف اجلب لك طعام الفطور بنفسي . استريحي دون ان تقلقي .

قال هذه الكلمات وانصرف بخطى كبيرة .

جلست على كومة الخشب واخـــذت اقرأ . وصلت الى منتصف الكتاب عندما أعلن لي صوت الجزمة عن عودة الضابط .

— هاهو فطورك . لاشك انك تضجرين هنا من البقاء لوحدك .

ووضع طبق الفطور على العشب وانسحب لتوّه .

وعندما انتهيتُ من تناول فطوري تسلقت كومة الخشب وتمددت لاقرأ . وأنهيت الكتاب فنمت . واستيقظت بعد الساعة الثالثة ولديّ الشعور المفاجيء بانني سبق لي أن رأيت الضابط الشـــاب في مكان آخر ولكن أين ؟ مستحيل أن أتذكر . وعندما نزلت من مجثمي كنت أكمل اعـادة تصفيف شعري حين سمعت من جديد وقع حذائه .

— لقد اشتغلت جيداً اليوم. شكراً . يمكنك ان تذهبي الآن اذاشئت.

وانطلقت نحوه لأرد اليه الكتاب . واردت ان اعرب له عن امتناني. ولكنني لم اجد كلمة اقولها . وبقيت صامتـــة انظر في وجهه . واذ التقت

نظراتنا امتلأت عيناي بالدموع . وعند ذاك رأيت قطرات من الدموع تترشح على اطراف اهدابه .

وانفصلنا دون ان ننبس ببنت شفة ، دون شيء آخر اكثر من ذلك . ولكن هذا الضابط الشاب لم يظهر أبداً بعد ذلك في المكان الذي كنت اشتغل فيه . بفضله عرفت يوماً من التفرغ . وبعد ذلك لم اعد اعمل اشغالاً تتطلب قوة . كانت أمي تقلق كثيراً على صحتي من ذلك، ولكن هذا النوع من العمل كان يعطيني قوة لم اعرفها قط . وحتى الآن رغم كوني امرأة بكل معنى الكلمة لديّ ميزة هي أن أعمال الحقول الصعبة لاتزعجني بوجه خاص .

قلت انني اكره التحدث عن الحرب أو سماع الناس يتكلمون عنها ، ولكنني ألاحظ انني تحدثت طويلاً عن مساهمتي فيها . ذلك ان هنا تتوقف الذكرى الوحيدة التي اميل نوعاً الى روايتها عن الحرب . اما الباقي فيمكن ان يتلخص تماماً بهذا الشعر :

في العام الماضي لم يحدث شيء
وفي العام الأسبق لم يحدث شيء
وفي العام الذي سبقه لم يحدث شيء

ان في هذا شيئاً من الغباء ، ولكن الشيء الاساسي في مساهمتي في الحرب يتمثل بجزمتي هذه .

ان موضوع هذه الجزمة يجرني الى استطراد آخر ، غير انه يجب ان اضيف انه اذا كان احتذاء مايمكن تسميته تذكاري الوحيد عن الحرب وذهابي

الى الحقول كل يوم ، اذا كان هذان الأمران يخففان من كآبتي الدفينة والقلق الراسي عميقاً في قلبي، فان مالا يقل عن ذلك واقعية هو ان امي تضعف يوماً عن يوم.

بيوضى الحية .

النار .

ان صحة أمي تتهدم بصورة ظاهرة ، في حين انني على العكس ، أشعر حقا انني أصبح امـــرأة قوية البنية ، امرأة من الشعب . ولا استطيع أن اتجنب التفكير بانني اتقوى بتنشق نفس الحياة من أمي .

لم تلمح امي ابدا الى حادث النار منذ مزاحها عن الحطب الذي كان مهيأ ليحرق . وبـدلا من أن توبخني ظهرت بالعكس مشفقة علي ، ولكنها شعرت بانفعال من الحادث اقوى من انفعالي بعشر مرات ولاشك . فمنذ خطر الحريق هـــذا وامي تئن احيانا في نومها ، وفي ليالي الرياح الهوجاء تخرج من سريرها مرات لا اعرف لها عددا ، وتفتش البيت كله متظاهرة بالذهاب الى المغسلة . انها لا تبدو ابدا حسنة السحنة . وفي بعض الايام تبدو اقل الخطوات وكأنها تكلفها جهدا كبيرا . لقد سبق لها أن اعربت عن الرغبة في مساعدتي في الحقول ، ورغم انني ابعدتها عن هذه الفكرة ، اصرت على سحب خمسة او ستة سطول ماء كبيرة . وفي اليوم التالي كانت تعاني آلاما في عضلاتها بحيث تكاد لا تقدر على التنفس . فاضطرت الى قضاء يوم كامل في الفراش . وبعد ذلك بدت وكأنها تخلت عن فكرة القيام بعمل يدوي . واحيانا تأتي الى الحقول ولكن لتلاحظ فقط بانتباه ما اعمله هنا .

واليوم قالت امي فجأة وهي تنظر الي في العمل :

– يُزعم ان الذين لايحبون زهور الصيف يموتون في الصيف . وأنا اتساءل اذا كان هذا صحيحا . (ودون أن اجيب ، تابعتُ سقاية الباذنجان . كان الصيف بدأ يطل فاستأنفت امي الكلام) : احب كثيرا زهـور النيل ولكن ليس عندنا منها في حديقتنا .

فاجبتها بلهجة جافة متعمدة :

– لدينا كثير من الدفلى .

– أنا لا احبها ، احب جميع الزهور الصيفية تقريبا ولكن لزهور الدفلى لونا عنيفا جدا .

- أنا افضل الورود ، ولكنها تزهر اربـع مرات في السنة . وانا اتساءل ما اذا كان الناس الذين يحبون الورد يجب أن يموتوا اربـع مرات متتالية .

وضحكنا معا . ثم سألتني امي وهي ماتزال باسمة كلها :

– الا ترغبين بالاستراحة قليلا ؟ لدي ما اريد أن اقوله لك .

– ماذا اذن ؟ اذا كان ذلك لتنبئني بموتك ، كلا ، شكراً .

ومع ذلك تبعت أمي الى المقعد الذي كان تحت عريشة الغليسين . كانت عناقيد الزهر على وشك الذبول وكانت الشمس الناعمة النـافذة من بين أوراق الشجر تلقي اشعتها على ركابنا وتلونها بالأخضر .

لديّ ما أريد أن أقوله منذ بعض الوقت ، ولكنني أنتظر الوقت الذي نكون فيه نحن الاثنتين في أنس وبهجة . أنت تعلمين أن المسألة ليست

سهلة للمناقشة . ولكنني اليوم أشعر بنفسي قدرة على بحثها . وأكون ممنونة لك اذا هدأت أعصابك وأصغيت إليّ حتى النهاية . الحقيقة أن ناووجي حي يرزق.

وتشددتُ بقدر ما استطعتُ .

— منذ خمسة أو ستة أيام تلقيت رسالة من خالك وادا . لقد عاد أحد مستخدميه القدماء مؤخراً من جنوب المحيط المادي . وذهب ليقدم احترامه لخالك في مكتبه ، وقال عرضاً انه انتسب الى نفس الوحدة التي كان فيها ناووجي وان صحة ناووجي جيدة وسيعود قريباً . ولكن هذا الرجل نقل أيضاً نبأ مزعجاً ، وهو اذا صح كلامه ، أن ناووجي أصبح مدمناً الأفيون الى حد كبير .

— أيضاً !

وازورّ فمي كما لو بتأثير طعام مر . فعندما دخل ناووجي الى الجامعة سار على منوال أحد كتّاب الروايات وتناول العقاقير وانتهى بأن تابيع مع أحد الصيادلة على دين كبير الى درجة أن أمي لم تتمكن من تسديده الا بعد سنتين .

— نعم ، يبدو عليه أنه تخلى عن التدخين ، ولكن المستخدم يؤكد أن ناووجي سيعود حتماً معافى والا فلن يسّرح أبداً ، ويتابع خالك رسالته فيقول أنه حتى اذا عاد ناووجي معافى ، فعليه أن لا يحتفظ بأي أمل في أن يجد عملاً بسبب هذا التسمم . فحتى أناس عاديون تماماً يصبحون الآن غريبي الأطوار اذا اشتغلوا في طوكيو . وهل في ذلك مايدعو للدهشة مع ما يسود المدينة من تشوش ؟ والحال ان انساناً نصف مشوه مـــا كاد يتخلص من الانسمام

بالخدر يمكن أن يصبح معتوهاً . ومن المستحيل التكهن بما يمكن أن يفعله .
فاذا عاد تاووجي فالأفضل هو ايواؤه هنا ، واستقباله في هذه الجبال والحؤول
بينه وبين الخروج منها . هذا أولاً . ولكن خالك يا كازوكو يضيف قولاً
آخر . انه يقول اننا خسرنا كل ثروتنا وان هذا ليس مدهشاً ، فاذا أضفنا
تجميد الدخل ومصادرة الرساميل فهو أيضاً لن يتمكن بعد الآن من أن
يرسل لنا ما كان يرسله في الماضي . وسيكون من الصعب عليه جداً أن يأتينا
بما يسد الرمق لاسيما عندما يعود تاووجي ونصبح ثلاثة تجب اعالتنا . وهو
ينصحنا بالتالي ان نبحث لك دون ابطاء اما عن زوج واما عن وظيفة ما في
بيت خاص .

وظيفة ... كخادمة ؟

– كلا ... الخال يتحدث ، أليس كذلك ، عن عائلة في كومابا ...

وذكرت اسم عائلة من الامراء .

– اذا كانت هذه العائلة هي المقصودة فهذا حسن لان بيننا وبينها
قرابة أن تكوني موظفة هناك كمعلمة للاميرات الصغيرات ، أظن أن هذا
لن يكون على الأرجح لا شديد الازعاج ولا بعيداً عما يناسبك .

أنا أتساءل اذا لم يكن بالامكان أن أجد مهنة اخرى .

– انه يقول أن أي عمل آخر مستحيل .

علام المستحيل ؟

وابتسمت أمي ابتسامة حزينة ولكنها لم تحر جوابا .

كلا ! كفاني ، يجب ألا نتكلم في هذا الموضوع بعد الآن ..

(وانفجرتُ بعصبية ، عالمة بانني ساندم حالا على ذلك ولكنني غير قادرة على التوقف) انظري اليَّ في هذه الجزمة المخيفة .

ونفرت الدموع في عيني ، وأخذتُ انتحب رغماً عني . رفعتُ رأسي وأنا أمسح دموعي بقفا يدي ونظرت الى أمي في وجهها . فمع تفكيري بانني « يجب أن لا أفعل ! يجب أن لا أفعل ! » نفرت الكلمات رغماً عني في سلسلة كانت تأتيني من أعماق اللاشعور .

ـ ألم تقولي لي سابقاً انك بسببي ، ولكوني معك ، تأتين الى ايزو ؟ ألم تقولي انني لولم أكن عندك لما كان لديك سوى ان تموتي ؟ لهذا بقيتُ هنا ، دون أن ابتعد عنك . وهنا اعيش في هذه الجزمة لانني لا افكر الا بيانبات الحضار التي تحبينها . ولكن ها انت تنوين اعلان عودة ناووجي وفجأة تجدينني بلا لزوم . « اذهبي وتوظفي كخادمة ! » هكذا تقولين . ان هـذا كثير جدا ، انه كثير جدا .

أنا نفسي وجدتُ هـذه الكلمات فظيعة ولكني لم اكن استطيع امساكها . كان يبدو لي انها تنهمر من فم انسان غيري .

ـ اذا كنا فقراء وفقدنا كل شيء فلماذا لانبيـع ثيابنـا الجميلة ؟ هذا البيت ؟ استطيـع ان اعمل اي شيء . استطيـع ان اكون مستخدمة في مكتب بلدية القرية واذا رفضوا تشغيلي استطيـع ان اقوم بعمل « الكولي » الفقراليس شيئاً . اذا كنت تحبينني فانا لا اتمنى شيئاً سوى ان اقضي حياتي كلهـا بالقرب منك . ولكنك تحبين ناووجي اكثر مني ، أليس كذلك ؟ سأذهب . سأذهب . انا لم اتمكن أبداً من التفاهم مع ناووجي ، واذا بقيتُ فلن يؤدي ذلك الا الى

تعاستنا نحن الثلاثة . لقد عشنا طويلاً معـــاً ، انت وانا لا اندم على شيء من حياتنا الحميمة . ولكنك تستطيعين البقاء وحدك مع ناووجي . اتمنى من اجلك ان يكون ابناً صالحاً . اما انا فكفاني . كفاني من هذه الحيـاة . سأذهب . سأذهب اليوم ، حالاً . انا اعلم اين اذهب .

ونهضتُ . فنادتني امي بصرامة :

ـ كازوكو !

كان على وجهها مسحة من المهابة لم ارها يوماً عليها . وعنـدما وقفتُ وقاستني بنظرتها بدت أطول مني تقريباً .

أردت أن أطلب منها العفو ولكن الكلمات لم تخرج من فمي . ولم استطيع الا ان اتلعثم بسواها .

ـ لقد خدعتني يا أمي لقد خدعتني . لقد استخدمتني حتى رجوع ناووجي . كنت خادمتك والان اذ لم تعودي بحاجة الي ، تقولين لي : اذهبي الى خدمة الأمراء .

وأطلقت صرخة وانهمرتُ دموعاً .

ـ أنت بلهاء جداً .

كانت أمي تقول هذه الكلمات وصوتها يرتجف من الغضب .

ورفعت رأسي :

ـ نعم أنا بلهاء . لقد استخدمتني لأنني بلهاء . وأنت تتخلصين مني لانني بلهاء . الأفضل أن أذهب أليس كذلك ؟ الفقر ... ما هذا ؟ المال ...

ما هذا ؟ أنا لا أفهم هذه الأشياء . لقد آمنت دائماً بالحب ، بحب أمي ، بهذا الحب على الأقل .

ومن جديد استعدت هذه اللهجة البلهاء التي لايمكن التسامح معها .

وأدارت أمي رأسها فجأة. كانت تبكي. وودت لو أطلب عفوها وأتعلق بها ولكن العمل في الحقول كان قد وسخ يدي وهذا العائق اللاارادي أوقفني بعيداً.

- كل شيء سيكون على ما يرام اذا لم أكن هنا ، أليس كذلك ؟ سأذهب . أنا أعلم أين أذهب .

وعلى أثر هذه الكلمات هرعتُ الى الحمام حيث غسلت وجهي ويدي دون أن أتوقف عن النحيب . ودخلت الى غرفتي وارتديت ملابس أوروبية ولكنني بقيت مهللة بالدموع . كنت أشتهي أن أبكي . أن أبكي ، أن أسكب آخر دمعة من دموعي . وعند ذلك صعدتُ راكضة الى الغـرفة الأجنبية الطراز في الطابق الأول وألقيت بنفسي على السرير وأخذت أبكي وقد أدخلت رأسي في الأغطية كما لو كنت أريد أن أنشف جسمي كله . ثم أخذت أفكاري تهيم على غير هدى . واخذ الشوق الى شخصية ما ينبثق شيئاً فشيئاً من شقائي ، حتى تبلور في نفسي وتمنيت من كل قواي أن أرى وجهه ، أن أسمع صوته . شعرت بذلك الاحساس الفريد الذي يحس به الانسان عندما يشير الطبيب باستعمال الكيّ في باطن القدمين ويقتضي الأمر احتمال الألم دون أن تحرك ساكناً .

وعندما حل المساء دخلتْ أمي برفق الى الغرفة واشعلت النور . واقتربت من السرير ولفظت اسمي بصوت مفعم باللطف .

فانتصبت وجلست على السرير وأنا أرفع شعري بيدي . ونظرت اليها بصراحة وابتسمت .

وعملتْ أمي جهدها لتبتسم هي أيضاً ثم تهاوت على مقد تحت النافذة .

– لأول مرة في حياتي ، عصيت خالك منذ لحظة . لقد أجبته راجية منه أن اكون وحدي الحكم في شأن أولادي . يا كازوكو . سنبيع فساطين الأيام الغابرة ونستعمل ثمنها على هوانا ، في جميع التوافه التي تستهوينا . لِنَعِش عن سعة . لا أريد ان اراكِ تشتغلين بالأرض بعد الآن . سنشتري خضارنا حتى ولو كلفت غالياً . من الجنون ان أقبل بأن تقضي ايامك في العمل كمزارع .

في الحقيقة أن جهد الأعمال الخشنة اليومية بدأ يعطي مردوده السيء فأنا واثقة انني اذا كنت قد بكيت وصخبت كما لو فقدت عقلي ، فذلك لأن تراكم الاجهاد الجسدي مع شقائي جعلني أكره الحياة وألعنها كلها .

أشحتُ نظري وبقيت جالسة على السرير . وعادت أمي الى الكلام .

– كازوكو !

– نعم

– بمن فكرت وأنت تقولين انك تعلمين أين تذهبين ؟ (عليّ أن أعترف بأن حمرة الخجل لفّتني حتى القذال) . هل كنت تفكرين بالسيد هوزودا ؟

وامتنعتُ عن الجواب .

واطلقتْ امي تنهدة كبيرة .

– هل لي أن اذكّر بذكرى تعود الى زمن بعيد ؟

فتمتمتُ قائلة :

- ارجوك .

– عندما تركتِ زوجكِ وعدتِ الينا في شارع نيشيكاتا ، لم أرد أن اوجه اليكِ اقل لوم . ولكن كان لي مبرر لأقول لك بانك خدعتني . هل تتذكرين ؟ لقد انهمرت دموعك وفهمت انني اخطأت بقولي لك شيئاً فظيعا الى هذه الدرجة .

ولكني تذكرت انني كنت ممتّنة لأمي لانها كلمتني بتلك الطريقة وان سبب دموعي كان السعادة التي منحتني اياها .

– عندما قلتُ لك انكِ خدعتِني ، فليس ذلك لانكِ غادرتِ بيت زوجك . بل لانني علمت منه انك والرسام هورودا كنتما على علاقة . لقد سبّب لي ذلك تأثيرا فظيعا . كان السيد هوزودا متزوجا منذ سنين وكان له اولاد و كنت اعلم أن تلك العلاقة لم تكن لتؤدي بك الى شيء مهما كان الحب الذي تكنيّنه له .

علاقة ... كان في هذا القول تسرع . لم يكن ذلك سوى شك بدون مبرر لدى زوجي .

– ربما . انا لا افترض انك يمكن أن تفكري بالسيد هوزودا بعد . فبمن كنت تفكرين وانت تقولين انك تعرفين اين تذهبين ؟

– ليس بالسيد هوزودا .

– حقا ؟ اذن بمن ؟

– امي ،لقد كنتُ منذ قريب الصفة الوحيدة التي تتميز بها الكائنات البشرية تماما عن الحيوانات. انا اعلم ان الانسان يتمتع بالنطق والذكاءوالتفكير وبنظام اجتماعي ولكن أليس هذا متوفرا لدى جميع الحيوانات ايضا ، بهذا القدر او ذاك ؟ ربما كانت للحيوانات ايضا معتقدات . ان الانسان يفتخر بكونه سيد الخليقة كلها ، ولكن يبدو انه لايختلف البتة جوهريا عن سائر المخلوقات . غير انني يا اماه اعترف له بامتياز . ربما لا تتفهمينني . انه شيء لايتوفر مطلقا للحيوانات ، فالانسان وحده يمتاز به ، انه السر . مارأيك في ذلك ؟

فاحمرت أمي قليلا وابتسمت ابتسامة ساحرة :

– اذا كانت اسرارك لاتحمل سوى ثمار جيدة فأنا لاأرجو اكثر من ذلك . انني في كل صباح أصلي الى روح أبيك أن تجعلك سعيدة .

وفجأة عادت الى ذاكرتي صورة نزهة بالسيارة مع أبي الى تازونو وصورة توقف في الطريق . واستعدت رؤية الحقول في الخريف . كانت جميع زهور ذلك الفصل متفتحة منزهور « قدّك المياس » الى القرنفل الى الجنطيانة الى الناردين . كانت « الكرميّة العذراء » ماتزال خضراء . ولما نزلتُ وأبي من السيارة ، استأجرنا قارباً بخارياً على بحيرة بيوا . وقفزت الى الماء . ولامست الاسماكُ التي تعيش في الاعشاب المائية ساقيّ وكان ظل ساقيّ المنعكس بجلاء في قعر البحيرة يتحرك معي في نفس الوقت . لم يكن لهذه الصورة أية علاقة بالاقوال التي كنت اتحدث بها وأمي ولكنها اخترقت فكري واختفت بنفس السرعة .

وقفزتُ الى خارج حافة السرير وطرقت ركبة أمي بذراعي .

ـ أمي ، اتوسل اليك أن تسامحيني .

وأخيراً استطعت أن أقول ما كنت اريد قوله .

عندما افكر في هذا أرى ان في تلك الأيام كان ماتبقى لنا من سعادة يلفظ آخر أنواره .

ومنذ أن عاد ناووجي من جنوب المحيط الهادي بـــدأ جحيم حقيقي بالنسبة الينا .

شعور باليأس كما لو كان من المستحيل اطلاقاً الاستمرار في الحيـاة . موجات مؤلمة تضرب دون انقطاع على قلبي وهي اشبه بالغيوم البيضاء التي تركض بجنون مسعور على قبة السماء بعد العاصفة . ان انفعالاً رهيباً ـ ام أقول توجسا ؟ ـ يعصر قلبي ولا يتركه الا في اللحظة الحاسمة ويجعل نبضي غير منتظم ويقطع انفـاسي . وفي بعض الاحيان يصبح كل شيء مضبّاً اسود أمام عيني وأشعر بقوة جسدي كله تنفلت من اطراف اصابعي .

ثمة مطر كئيب يتساقط منذ بعض الوقت دون انقطاع تقريبـاً . كل ماافعله يحطّ من قواي . لقد اخرجتُ اليوم مقعداً من القش الى المصطبة وفي نيّتي أن اواصل حياكة السترة التي بدأتها هـذا الربيـع . الصوف بلون وردي يبدو باهتاً فخلطته بخيط ازرق ضارب الى الحمرة وقـــد أخذت هذا الصوف الوردي الشاحب من وشاح كانت امي قد حاكته لي منذ عشرين سنة ، عندما كنت في صف للاطفـال . وكان طرف الوشاح يشكل طاقية وعندما لبسته ونظرت الى نفسي في المرآة ظنتني أرى عفريتاً صغيراً . كان لون الوشاح

مختلفاً جـــداً عن الالوان التي تلبسها رفيقاتي وكان ذلك كافياً ليجعلني اكرهه بصورة غير معقولة . وقـد خجلت كثيراً بأن اظهر فيه بحيث رفضت أن ألبسه بعد ذاك فبقي طوال السنين مخبوءاً في أسفل أحد الأدراج . وفي هذا الربيـع عثرتُ عليه و كَرَرْتـُهُ . وقررت أن اعمل منه سترة لي تراودني النيـّةُ الوَرِعَـةُ بأن أبعث الحياة في ثوب ميت . ولكنّ اللونَ الباهت لم يَتمَـكّنْ من اثارة اهتمامي بهذا العمل فتركته جانباً . وليس لديّ عمل آخر أقوم به ، أخذته من جديد بدافع اللحظة التي أنا فيها وعدتُ الى حياكته بمقتٍ وعدمِ اكتراث . وعند ذاك فقط اكتشفت أن لون الصوف الورديّ الشاحب ولون السماء الغائمة الرمادي ينصهران في لون واحد فيشكلان انسجام ألوان حلو وناعم بحيث لا تستطيـع الكلمات أن تصفه . لم يسبق لي أبداً أن افكر بما يمكن ان يكون بموافقة الثوب للون السماء من أهمّية . وفكرت باندهاش كبير : أي جمـــال وأية روعة هو انسجام الألوان . فمن العجيب الخارق ان يلاحظ المرء انه اذا قرب لون السماء الرمادي من لون الصوف الوردي الشاحب فان اللونين ينتعشان فوراً . وأصبح الصوف الذي كنتُ أمسكـُهُ في يديّ نابضاً بالحرارة وأصبحت السماء الباردة الماطرة ناعمة كالمخمل . وتذكرت لوحة بريشة مرنة تمثل كاتدرائية في الضبـاب وبدا لي انني بفضل الصوف افهم لأول مرة ما يقوم عليه الذوق الجيد . الذوق الجيد . ان أمي قد اختارت الصوفَ الورديَّ الشاحب لانها كانت تعلم كم سيكون هذا اللونُ جميلاً مقابل سماء الشتاء الثلجية ، ولكن هذا اللون لم يرق للبلهاء التي كُنْتُهـا . لم اتصرف الا على هوايَ ، لأن أمي لم تحاول أبداً أن تفرض عليّ أي شيء . وطوال مدة حفظ هذا الوشاح جانبا لم تتلفّظ امي بكلمة شرح او توضيح :

بل انتظرت عشرين عاما ذلك اليوم الذي أصبح فيه قادرة على تقدير جمال اللون بنفسي . وفكرت : يالها من ام رائعة امي . وفي التو جابت غيوم من الرعب والتخوف نفسي وتضخمت فيها فجأة اذ تساءلت اذا لم نكن كلانا ،ناووجي وأنا ، قد عذبنا امنا واضعفناها حتى كدنا نقتلها . وكلما امعنت في التفكير بدا لي أن المستقبل يخبيء لنا شرورا فظيعة . لقد ملأتني هـــذه الفكرة بمخاوف لايمكن التعبير عنها بحيث انني شعرت بنفسي اكاد لا اقوى على الاستمرار في الحياة . وفقدت اصابعي كل قوة وتركت صنارتي على ركبتي . واطلقت تنهدة كبيرة وانا ارتجف . ورفعت رأسي مغمضة العينين وصرخت دون أن أعلم ماذا أعمل .

– أمي !

– نعم ؟

ردت امي بلهجة السؤال وكانت تقرأ منحنية فـــوق مكتب في زاوية الغرفة .

وارتبكت خجلا . ثم رفعت صوتي دون فائدة وقلت :

ـ واخيرا أزهرت الورود . هل علمت بذلك يا امي ؟ انا لم الاحظ ذلك الا لتوي . انها اخيرا بدأت تزهر .

والوردة المغروسة أمام الباب أتى بها الخال واذا منذ زمن طويل من فرنسا أو انكلترا ؟ على كل حال من بلد بعيد ثم نقلت من حديقتنا في شارع نيشيكاتا وغرست هنا .وقدرأيت جيداً هذا الصباح أن احداها كانت مزهرة، غير أنني تصنعت فجأة حماسة زائدة لأخفي ارتباكي مؤكده انني لم الحظها الا

لتوّي . وكان للزهرات الحمراء الغامقة اللون كبرياء عبوس وقوة خافتة .

وقالت امي بلطف :

ــ نعم كنتُ اعلم ذلك ، واضافت : يبدو انك تعلقين عليها كثيراً من الاهمية .

ــ ربما . فهل تأسفين عليّ لذلك ؟

ــ كلاّ . أريد فقط أن اقول أن هذا الشغف يشكل احدى صفاتك المميّزة . انت تظهرين الحماسة نفسها في الصاق صور رينوار على علب الثقاب في المطبخ أو في صنـع المناديل لدماك . ويخيّل لمن يسمعك تتكلمين عـن ورد الحديقة انك تتحدثين عن كائنات حيّة .

ــ ذلك انه ليس لي أولاد .

واضطربتُ من جوابي بالذات . فعدت بعصبية أمسك شغلي فييدي. وخيّل اليّ انني اسمع بوضوح صوت رجـــل ، صوتاً خافتاً أبح ، كصوت يقول في الهاتف : « ماذا تريد ... عمرها تسعة وعشرون عـاماً ! » فالتهب خدّاي خجلاً .

ولم تردّ عليّ أمي مطلقاً وعادت الى قراءتها . انها منذ بضعة أيام تلبس قناعاً من الشاش على فمها وربما كان ذلك سببَ صُماتها الحـديث ، الاستثنائي عندها . أما هذا القناع فتلبسه اطاعة لنصائح ناووجي .

لقد عاد ناووجي منذ اسبوع تقريبـاً من جنوب المحيط الهادي بوجـه شديد الشحوب . فذات مساء صيفي ودون سابق انذار ظهر في الحديقة وهو يصفّقُ الحاجز الخشبي وراءه :

باللبشاعة ! ياله من بيت شرس الذوق ! كان بامكانكما أن تضعا خارجا لوحة يكتب عليها : « بيت صيني : شوماي » !

هكذا كانت الكلمات التي استقبلني بها ناووجي عندما رآني بعد غيابه.

كانت أمي تلازم سريرها منذ يومين او ثلاثة بسبب ألم في لسانها . أنا لم أر شيئاً غير طبيعي في طرف لسانها ، ولكنها كانت تقول ان أقل حركة تؤلمها ألماً لا يحتمل . ولم تكن تستطيع أن تبلع شيئاً لدى تناول الوجبات سوى حساء خفيف . واقترحتُ عرضها على الطبيب ولكن أمي هزّتْ رأسها وأجابت بابتسامة جاهدة « لن يفعل شيئاً سوى انه يسخر مني » . ودهنت لسانها بمادة اللوغول ولكن ذلك لم يبدُ مخففاً لألمها. ان مرض أمي قد هزّ أعصابي .

في هذه الظروف عاد ناووجي .

جلس قليلا عند رأس امي وانحنى محيياً اياها بكلمة . كان ذلك كل شيء . وعلى الفور نهض وهرع يزور البيت . فتبعته .

— كيف تجد امي ؟ متغيرة ؟

— طبعاً تغيرت . لقد نحلت . الافضل لها ان تموت قريباً . ان الكائنات التي على شاكلة امي ليست مؤهلة لأن تعيش في عالم كهذا . ان لها وقعاً في النفس يجعلني عاجزاً عن النظر اليها .

— وأنا ؟ ماذا تفكرين بشأني ؟

— لقد تحولتِ الى عاميّة . ان وجهك يبدو كوجه امرأة لها رجلان أو ثلاثة رجال . هل عندك ساكي[1]؟ ان بي حاجة الى أن أسكر هذا المساء .

---

(١) الساكي : مشروب ياباني يصنع من تخمير الرز (المترجم)

وذهبت الى النزل الوحيد في القرية وطلبتُ من صاحبته أن تعطيني قليلا من الساكي على شرف عودة اخي ، ولكنها قالت لي أن المؤنة قد نضبت مع الأسف . وعندما نقلتُ هذا الجواب الى ناووجي امتقع لونه بتأثير تعبير لم أرَهُ يوما على ملامحه مما جعلهُ غريبا عني .

ـ ايتها المرأة الملعونة ! لم تعرفي كيف تقنعينها .

فكان علي أن اقول له أين يقع النزل فهرول اليه . ولأقُلْ بكل روح موضوعية انني انتظرتُ عودتَهُ طوالَ ساعات . كنت قد اعددت صحناً من البطاطا وهي من المآكل المفضّلة لدى ناووجي كما صنعتُ عجّة بالبيض ، بل انني اضفتُ مصابيح كهربائية في غرفةِ الطعام لأزيد في حرارة الترحيب . وبينما كنت انتظر أدخلت اوساكي ، خادمة النزل ، رأسها في باب المطبخ ووَشْوَشَتْ واجفةً :

ـ المعذرة . هل هذا حسن ؟ انه يشرب « جّن » .

كانتا عيناها الكرويتان اجحظ من عادتها .

ـ « جّن » ؟ هل تعنين كحول المثيلي ؟

ـ كلا ، هذا من الميتيل ، ولكنه مثله .

ـ هذا لن يُمَرِّضَهُ اليس كذلك ؟

ـ كلا ولكن ...

ـ إذن دعيه يشرب .

اعلنت اوساكي رأيها كما لو كانت تبلعُ ريقها ثم اختفت .

وذهبتُ لأقول لامي :

– انه يشرب عند أوساكي .

فغضّنت أمي فمها كأنها تبتسم .

– يظهر أنه ترك الأفيون . تمي العشاء اذن . هذا المساء ننام نحن الثلاثة في هذه الغرفة . ضعي سرير ناووجي في الوسط .

كان بامكاني أن ابكي من ذلك .

عاد ناووجي متأخراً ، في أواسط الليل وهو يرتطم بكل شيء في البيت فيحدث ضجيجاً ونشرتِ الناموسية واتخذنا لنا نحن الثلاثة ملجأتحتها .
وعندما استلقيتُ سألت :

– لماذا لاتحدّثُ أمي عن بحار الجنوب ؟

– ليس فيها ما يستحق الذكر . لا شيء أبداً . نسيت . عندما عُدْت الى اليابان وصعدتُ الى القطار بَدَتْ لي حقول الرز التي رأيتها من النافذة جميلة بشكل لا يُصدّق . هذا كل شيء . اطفئي النور . أنا لا أستطيع النوم .

واطفأتُ . كان ضوء القمر يتغلغل من شبكة الناموسية .

وفي صبيحة الغد ، كان ناووجي ما يزال مستلقياً يدخن سيجارة فنظر إلى البحر في البعد . وقال :

– قيل لي أنكِ تتألمين من لسانك .

ويخيّل لمن يسمعه أنه اكتشف لتوّه أن أمي لم تكن حسنة الصحة .

ولم تجب أمي الا بابتسامة ضعيفة .

– أنا واثقٌ أن هذا مرض نفسي . انت على الأرجح تنامين فاغرة

الفم . انك [illegible] الاهتمام . يجب أن تلبسي قناعاً من الشاش . بلّـي شاشاً في محلول الريفانول وضعيه في قناع .

فانفجرتُ :

– وكيف تسمّي هذا النوع من المعالجة ؟

– هذا يُسمّى المعالجة التجميلية .

– ولكنني واثقة أن أمي تكره أن تلبس قناعاً .

وأمي ترفض أن تضع أي شيء كان على وجهها ، حتى النظارات ،وحتى ضماداً على عينيها اذا كانت جفونها ملتهبة . فبالاحرى أن ترفض قناعاً .

وسألتها :

– أمي ، هل تريدين أن تلبسي قناعاً ؟

– نعم . بكل تأكيد .

كانت اجابتها هذه جدية ، فاندهشت من ذلك ، يبدو أن أمي كانت مصممة على الاعتقاد بكل ما يمكن أن يقوله ناووجي وعلى أن تطيعه .

وبعد طعام الفطور بلّلتُ قطعة شاش في محلول الريفانول وفقاً لنصيحة ناووجي ، وثنيتُ الضّمادَ لأجعل منه رفادة وأتيتُ بها الى أمي فقَبِلَتْها دون أن تنبس ببنت شفة وعَقَدَتِ الأربطةَ برفقٍ حول أذنيهـا . فكانت مؤثرة في تمددها على هذه الصورة حتى ليبدو عليها كأنها ابنة صغيرة .

وبعد الظهر أنبأنا ناووجي بأن عليه أن يذهب الى طوكيو ليزور أصدقاءه ، فارتدى بزة مدنية وذهب بألفي ينّ استعارها من أمي .

لقد انقضتْ عشرةُ أيام تقريباً منذ ذهـــابه وليس ثمة حتى الآن

ما ينبيء برجوعه . وتلبس أمي قناعها كل يوم وتنتظر ناووجي . قالت لي أن العلاج فعّال جداً وأن لبس القناع يخفف كثيراً ألم لسانها . ومع هذا لاأستطيع أن أمتنع عن التفكير بأنّ أمي لا تقول الحقيقة . لقد غادَرَتْ سريرها ولكن شهيّتها للطعام ما تزال ضعيفة وهي تكاد لاتتكلم . ان حالتها تعذّبني وأنا أتساءل ماذا يمكن أن يؤخر ناووجي طوال هذا الوقت . لاشك انه يتسلى مع ذاك الكاتب الروائي اويبارا وانه انغمس في زوبعة طوكيو الهاذية . وبقدر ما أدعُ أفكاري تدور في هذا الموضوع بقدر ما تبدو لي حياتي مرة . من المؤكد أنني لم أعد أسيطر على نفسي ما دمت أطلق انفجارات صوتية دون داعٍ لأقول أن الورود تزهر أو لأعلنَ انني دون أولاد ، وهي انحرافات عن جادة العقل لم أستطع يوماً ان اتصور نفسي قادرة عليها .

وسقط شغلي عندما نهضت وانا اطلقُ صرخةَ شقاء . وشعرتُ بنفسي شاردةً كليّاً وانا ابحث عما سأصبحُه . وصعدتُ بساقين مرتجفتين الى الغرفة الأجنبية الطراز في الطابق الأول .

ستكون هذه غرفة ناووجي . لقد اتخذت أنا وأمي هذا القرار منذ أربعة أو خمسة ايام ورجوتُ من المزارع الساكن تحتنا ، السيد ناكاي ان يساعدني على إصْعادِ الخزانة لثياب ناووجي الاوروبية ، وطاولته ومكتبته وخمسة او ستة صناديق خشبية محشوة بالكتب ودفاتر الجيب ومختلف الاشياء الاخرى ، وبالاختصار كل ما كانت تحويه غرفته في بيتنا القديم بشارع نيشيكاتا . ولكننا قررنا أن ننتظر عودته من طوكيو لنضع أغراضه في مكانها إذ لم نكن نعلم أين يريد ترتيبها . كانت الغرفة مشوّشة لدرجة ان المرء لايكاد يجد فيها فسحة ليدور على نفسه فيها . وأخرجتُ صدفة من صندوق مفتوح

احد دفاتر ملاحظات ناووجي . كان مكتوباً على الغلاف : « مذكرات وجوه المساء » . كان يبدو على كل دفتر المذكرات هـذا أنه يعود الى الزمن الذي كان فيه ناووجي يعاني الانسهام بالخدر ...

شعور بأنني أحترق حياً . ومهما كان هذا العذاب شديداً فأنا لااستطيـع حتى التلفّظ بهذه الكلمات البسيطة : « أنا أتألم » . لاتحاول نبذ هـذا التشاؤم من جحيم لامثيل له ، جحيم فريد في تاريخ الانسان ، جحيم لاقعر له .

أفلسفة ؟أأكاذيب . أمبادىء ؟ أمثلٌ عليا ؟ أأكاذيب . أنظام ؟ أأكاذيب .أصدق ؟ أحقيقة ؟ أطهارة ؟ كل ذلك أكاذيب . يقـــال أن عمر ازهار غليسين أوشيجيا آلاف السنين وأن أزهار غليسين كوما تعود الى عدة قرون . وسمعت من يقول ان عناقيد أزهار غليسين اوشيجيا تبلغ حداً أقصى من الطول يقال تسعة اقدام وعناقيد غليسين كومانو اكثر من خمسة اقدام . ان قلبي لا ينفك عن الرقص في هذه العناقيد من الغليسين المُزهرة .

وذاك أيضاً ، هو ابن أحد الناس . انه حيّ .

المنطق هو ، لامحـالة ، حب المنطق . فهو ليس حبّاً لكائنات بشرية حيّة . المال والنساء . المنطق الخائف ، ينهزم مسرعاً .

شهادة الدكتور فوست الجريئـة : ابتسامة فتاة اثمن من التاريخ ، والفلسفة والتربية والدين والقانون والسياسة والاقتصاد وجميـع الفروع الأخرى من المعرفة .

الثقافة اسم آخر للغرور . انه جهد الكائنات البشرية لكي لايظلوا كائنات بشرية .

أستطيع أن أقسِمَ حتى امام غوته أنني كاتبٌ جزلُ المواهب .
بناء دون وهن ، خميرة حقيقية للفكاهة ، انفعال يستنفر الدموع من عيني القارىء أو رواية ممتازة كاملة في نوعها ، لقراءتها عاليا بصوت رنان مع الاحترام الواجب لها ، هـذا شيء (هل اسميه التعليق على فلم ؟) ازعم انني كان يمكن أن اكتبه لو لم اكن اخجل منه . ثمّة شيء مكروه للغاية في ادراك المرء عبقريته على هـذا النحو . وليس سوى مجنون يمكن أن يقرأ رواية باحترام . ومن الأفضل في هذه الحال أن يفعل ذلك في ثياب احتفالية كما لو كان ذاهبا الى جنازة . آملا أن لايكون لهذه الرواية مظهر مصطنع كمؤلِّف جيد ! سأكتب روايتي بدون حذلقة ، سأختمها بصورة متعمّدة ، فقط لارى ابتسامة سرور حقيقي على وجه صديقي – لأقع جالسا على الأرض وأعود فأقفز وانا احكّ رأسي . أوه ، أني أرى وجه صديقي سعيدا !

ماهي هـــذه العاطفة التي قد تجعلني اتباهى بالنثر السيء وبشخصية سيئة لأهتف : « ها كم اعظم ابله في اليابان ! واذا قُورنتَ بي فانت كاملُ الصفات ... لتكن صحتك جيدة ! » .

ايها الصديق ! انت يامن تتلو بظرف ولباقة : « انها عادته السيئة » . باللتعاسة ! » أنت لاتعلم بانك محبوب .

واتساءل اذا كان ثمة انسان غير منحط .

فكرة مضنية .

أنا في حاجة الى مال .

واذا لم يكن لدي مال ...

فموت طبيعي وأنا نائم !

تجمع علي دَيْنٌ يقارب الألف ينّ عند الصيدلي . واليوم أدخلتُ خلسة أحد مستخدمي الدائن المسترهن الى البيت واقتدته الى غرفتي . وسألته : « هل ثمّة شيء يستحق الرهن ؟ اذا كان الجواب نعم فخذه فانا في حاجة ماسّة الى مال » .

وما كاد المستخدم يلقي نظرة في الغرفة حتى اتته الصفاقة ليجيبني : « تخلّى إذن عن هذه الفكرة : الاثاث ليس ملكك » . فقلت له بحرارة :

حسنٌ جداً ، لا تأخذ اذن الا ما اشتريته من خرجيّتي . ولكن أياً من الأشياء الغريبة الشاذة التي وضعتها أمامه لم يكن له من القيمة ما يؤهّله للرهن .

مثلًا ، يد من الجبسين . كانت اليد اليمنى من فينوس . يد كزهرة أضاليا ، يد نقيّةُ البياض ، مركبة على قاعدة . ولكن ، لو نظر اليها المرء بدقة وعناية لرأى الى أية درجة كانت هذه اليد النقية البيــاض ، هذه اليد النحيفة ، ذات الأنامل الخالية من العروق والراحة الناعمة ، تعبّر عن الخجل ، عن خجل من الشدة بحيث ينقطع منه نفس فينوس ، كانت وضعية هذه اليد بالذات تذكر باللحظة التي تركت فيها فينوس نفسها عرضة لأن يراها رجل في كامل عُريها حيث انقبض جسمها محمرّاً من حرارة انفعالها ، من ارتباك خجلها ومأساة عريها . ومن سوء الحظ لم تكن سوى أداة بسيطة اشتريتها مستعملة . فقدّرها المستخدم بخمسين ينّاً .

امثلة أخرى : خريطة كبيرة لضواحي باريس . خـــذروفٌ من

السللولوبيد يبلغ قطره حوالي خمسين سنتمتراً . وريشة مروّسة لدرجة انها تتيح الكتابة بخطوط أدق من خيوط العذراء . كل الاشياء التي اشتريتها مع الشعور بأنني أقوم بتجارة من ذهب .

لم يفعل المستخدم شيئاً سوى أنه ضحك منها وقال : « لم يبق أمامي سوى أن انسحب » .

فقلت له وأنا استوقفه: « انتظر ! » . وأخيراً نجحت في تحميله كومة ضخمة من الكتب لم يعطني عنها سوى خمسة بنّات . كانت كتب رفوفي ، كلها ، ماعدا القليل ، مطبوعات رخيصة الثمن ، مضبورة اشتريتها مستعملة . ولم يكن من المستغرب أن اراها تثمّن بثمن بخس الى هذا الحد .

عندي خمسة بنات لتسديد دين يبلغ الف بن ، هذه على وجه التقريب الوسائل التي في حوزتي . وليس في هذا مايُضحك .

ولكنني كنت افضل كثيراً أن يقال لي ببساطة أن اذهب الى الموت من أن اسمع الاشخاص القلائل الذين ينتقدونني يقولون لي بلهجة التعالي : « أن الانحطاط هو الطريقة الوحيدة للاستمرار في الحياة ! » . فذاك القول سيكون مباشراً صريحاً . ولكن الناس لايقولون ابداً تقريباً : « مت ! » . أنذال ، متحذّرون ، مراؤون !

العدالة ؟ لن تجد فيها مايسمونه نضال الطبقات . الانسانية ؟ ـ دع حدة الغباوة ـ أنا أعلم . هذا يعني ان يحطّم المرء رفاقه لينقذ سعادته الشخصية . أنها جريمة قتل . فماذا يعني ذلك سوى اصدار الحكم : « مت ! » . لافائدة من التلاعب والمخاتلة .

ومن جهة أخرى لم يعد في طبقتنا أناس شرفاء . انهم اغبياء ، أشباح ، اخساء ، كلاب مسعورة ، منافيخ ، كلمات مفخّمة ، انهم كمن يبول من اعلى الغيوم .

« مت ! » هذه الكلمة لو قيلت لي لتجاوزت كثيراً مااستحقه .

الحرب . حرب اليابان عملية يأس .

أموت لأنني جُررت الى عمل يائس ... كلا ، شكراً . أفضل أن أموت بيدي بالذات .

إن الناس يتخذون دائماً وجهاً جدياً عندما يقولون كذبة . الجدّ لدى قادتنا الحاليين !

أفّ !

أريد أن اقضي وقتي مع أناس لايسعون الى كسب الاحترام . ولكن هؤلاء الناس الطيّبين لايريدون البتّة أن يقضوا وقتهم معي .

عندما زعمت انني نضجتُ قبل الأوان ، أثار الناس شائعة بأنني نضجتُ قبل الأوان . وعندما سلكتُ سلوك فارغ الاعمال جعلت الاسطورة مني بطّالاً . عندما زعمت انني لااستطيع أن اكتب رواية قال الناس انني لااستطيع الكتابة . عندما تصرفتُ ككذاب سموني كذّاباً . عندما كان لي مظهر رجل ثريّ قيل انني غني . وعندما تظاهرتُ باللامبالاة ، عاملوني كلامبال . ولكنني عندما بدر مني ، بقلة انتباه ، أنين لأنني كنت حقاً في ضنك ، اتهموني بأنني اتظاهر بالتألم .

كل شيء يسير معوجا .

أفلا يعني ذلك في الحقيقة انه لم يبق لي شيء اقوم به سوى الانتحار ؟ ورغم عذابي ، فان التفكير بأنني كنت واثقاً من الانتبـاه الى قتل نفسي ، كان يجعلني أطلق صرخات قوية وأنهمر دموعاً .

تحكى قصة تقول انه في صبيحة يوم ربيعي ، بينما كانت الشمس تتلألأ على غصن خوخ تفتحت عليـه زهرتان ، كان طالب فتي من هيدلبرغ يتأرجح متدلياً بهذا الغصن .

ــ ماما ، وبّخيني ، أرجوكِ !

ــ لماذا ؟

ــ يقال انني ضعيف قليلًا .

ــ حقاً ؟ ضعيف ... اعتقد انني لم أعد بحاجة الى أن انسبَ لك ذلك.

أن طيبة امي لاتضاهى . وكل مرة افكر فيها اتمنى لو أموت اعتذاراً منها ارجوك ، سامحيني . هذه المرة فقط ، ارجوك سامحيني .

(قصيدة رأس السنة)

السنون !

ماتزال عمياء تماماً

ان صغاراً للقلق

تكبر

آه ، كم انها تسمن

مورفين ، آترومول ، تاركوبون ، فيليبون ، بانتابون ، بابينـال ، بانوبين ، آتروبين [1] .

ماهو الاعتبار الذاتي ؟ الاعتبار الذاتي !

من المستحيل على كائن بشري ، كلا ، رجل ـ أن يستمر في الحياة اذا لم يستطع أن يفكر في نفسه: « أنا من النخبة » ، « لي صفات حسنة » الخ ..

انني اكره الناس ، ومكروه لديهم .

أدلة حصيفة .

الابّهة = شعوراً بالغباء [2] .

على كل حال ، يمكن أن نكون متأكدين من شيء واحد : على المرء أن يرائي ليستمر في الحياة .

رسالة طلب دين :

جوابَك .

أتوسل اليكِ . اجيبي .

وبطريقة تجعل جوابك يعيد مياهي الى مجاريها .

أنا أئِنّ على نفسي بانتظار اهانات من شتى الأنواع .

أنا لا أرائي . ابدا مطلقا .

---

(١) اسماء مخدرات (المترجم)

(٢) اقرأ : الأبهة تساوي شعوراً بالغباء (المترجم)

أنا اطلب منكِ هذه الصدقة .

انا اشعر انني قد اموت خجلًا من ذلك .

انا لا ابالـغ .

كل يوم ، كل يوم ، انتظر جوابك ، ليلا ونهارا ارتجف من رأسي الى قـدمي .

لاتجعليني اعض النقـع .

أنا اسمـع ضحكة مخنوقة تأتي من الجدران .

انني اتقلب في سريري حتى ساعة متأخرة من الليل .

لا تذلّيني .

يا أختي !

وما أن وصلت الى هـــذه النقطة حتى اغلقتُ « مذكرات وجوه المساء » واعدته الىصندوقه الخشبي . وسرتُ حتى النافذة وفتحتُها ثم نظرتُ الحديقة يلفها ضباب من المطر الابيض وتذكرت احداث تلك الحقبة .

كانت تلك الاحـداث تعود الى ست سنوات . عند ذلك سبّب انسهام ناووجي طلاقي بالفعل . كلا يجب أن لا اقول هذا . لديّ شعور بأن طلاقي كان مكتوبا منذ يوم ولادتي وانه حتى لو لم يتعاط ناووجي المخـدر لطلقتُ عاجلا أم آجلًا بأي دافع آخر . كان ناووجي يجد صعوبات دون الدفع الى الصيدلي وكان يزعجني أحياناً كثيرة بطلبات مالية . كنت قـد تزوجت لتوي ولم أكن حرة تماماً في اجراء نفقات . ثم أنني كنت اعتقد جزماً أن من بالغ سوء السلوك من جانبي ان أدسّ سرّاً في يدي أخي ما كنت أتلقـاه من

زوجي من مال . وبعد أن ناقشت المسألة مع خادمتي اوساكي التي كانت قد غادَرَتْ معي بيت أمي، قرّرْتُ أن ابيع أساوري وعقودي وثيابي . وكان ناووجي قد ارسل إلي كتاباً اختتمه هكذا : « احس ببالغ الأسى والخجل لأنني لن استطيع رؤيتك حتى ولا أن اكلمك بالهاتف. ارجوك ، ارسلي المال مع اوساكي الى بيت (وأعطاني عنوانه) الكاتب الروائي اوبيهارا جيرو الذي تعرفينه ولا شك ، بالاسم على الأقل . أن للسيد اوبيهارا سمعة سيئة ولكنه لا يستحقها في الحقيقة وليس لك أن تقلقي من ارسال المال على هذا العنوان . لقد اتفقتُ مع اوبيهارا أن يهتف الي حالما يصل المال اليه . ارجوك ان تفعلي ماالطبه منك . أريد ان اكتم انسمامي عن امي على الأقل . وأحياناً اقر أن اتعالج حتى لا تعرف شيئاً عن ذلك . اذا ارسلتِ اليّ المال الذي اطلبه منك فسوف ادفع الى الصيدلي كل ديني . وسأذهب بعد ذلك الى « دارتنا » الجبلية لأتخلص من الانسمام . هذه هي الحقيقة . أنوي أن اترك العقاقير تماماً . في اليوم الذي اسدد فيه كل ديني ، اقسم على ذلك أمام الله . ارجوك صدقيني . ارجوك احفظي السر عن امي وأرسلي اوساكي تحمل المال الى السيد اوبيهارا».

هذا بشكل تقريبي محتوى تلك الرسالة . وتبعتُ تعليمات اخي وارسلتُ اوساكي لتدفع المبلغ سراً عند السيد اوبيهارا ، ولكن الوعد الذي قطعه ناووجي في رسالته ، كان كاذباً كالعادة . فلم يذهب ليتخلص من السم . بل بالعكس تناول كثيراً من العقّار بحيث انتهى الى التسمم واصبَحَتْ حالته خطيرة جداً . وكان اسلوب الرسائل التي يكتبها إلي ليتوسل حتى ارسل له مالاً اسلوباً ذا لهجة مقلقة لم تكن سوى صرخة مصمّة . وفي كل مرة كنت أقرأ هذه الكلمات : « أعد بأن اتخلى عن العقاقير بعد الآن » هذه الكلمات

التي كان يتتبعها بقسم مؤلم الى درجـــة انه يجعلني أميل اشاحة النظر ، كنت متأكدة تماماً أنه ربما كذب مرة اخرى ولكنني مع ذلك لم اكف عن ارسال اوساكي لتبيع حلية وتحمل المال الى السيد اويبهارا .

— اي نوع من البشر هو السيد اويبهارا ؟ فأجابت اوساكي :

— قصير القامة ، اسمر ، كريه . ولكنه قلما يكون في بيته عنـدما اذهب اليه . فأنا لااجـد عادة الا زوجته وابنة صغيرة تبلغ السادسة من العمر تقريباً . اما زوجته فليست جميلة ولكنها تبـدو لطيفة دمثة . وليس لك أن تقلقي من ايداع مالك لدى سيدة مثلها .

لو اردنا مقارنة ما كنته آنذاك بما صرت اليه الآن ... كلا كنت مختلفة الدرجة ان المقـارنة مستحيلة ... كان رأسي في الغيوم وكنت اعيش بلا همّ . ومع ذلك بدأت اتألم بصورة رهيبة وأنا ارى المال يُسْلَبُ مني مبلغاً بعد مبلغ الدرجة اصبح معها الوضع لايطاق . ولدى عودتي ذات يوم من مسرح « نو » صرفت السيارة حال وصولي الى « جنزا » وذهبت مشياً لوحدي نحو مسكن السيد اويبهارا .

كان السيد اويبهارا لوحده في غرفته يقرأ جريـدة . كان يرتدي بزة يابانية تجعله يبدو شيخاً وشاباً في الوقت نفسه . وتلقيت اول انطبـاع غريب كأنه يأتي من حيوان نادر النوع لم يسبق لي ان رأيته قط .

— ذهبت زوجتي مع الصغيرة الى التوزيعات .

كان السيد اويبهارا أخنّ الصوت قليلًا يقطع كلماته . وبدا أنه يظنني صديقـــة لزوجته وعندما قلت له انني اخت ناووجي ، اطلق ضحكة صغيرة جافة . وانسابت فيّ ارتعاشة لم ادرِ لها سبباً .

- لو خرجنا ؟

ما كاد يقول هاتين الكلمتين حتى وضع معطفاً على ظهره ولبس قبقابين آخرين وانسلّ أمامي في الممر .

كان ذلك ذات مساء في بداية الشتاء . كان الهواء جليدياً ، وكان يبدو من رائحته انه يهب من نهر سوميدا . ومشى السيد اويهارا دون ان يتكلم وكتفه اليمنى مرتفعة قليلاً كأنه يتقي بها الهواء . وكنت اتبعه راكضة تقريباً .

ودخلنا الى منتجع صغير للجعة يقع في قبو بناء خلف مسرح طوكيو . كانت اربع أو خمس جماعات من الزبائن يجلسون حول طاولات في غرفة طويلة ضيقة يشربون بهدوء .

وشرب السيد اويهارا مطلوبه من الساكي في كأس بدلاً من الفنجان الصغير المألوف . وطلب لي كأساً أخرى وقدم لي من شرابه . فشربت كأسين ولكن دون أن اتأثر بها .

وشرب السيد اويهارا ودخّن دون ان ينبس ببنت شفة . كانت اول مرة آتي فيها الى مكان من هذا القبيل ولكنني وجدتني مرتاحة جداً وباشة .

ربما كان الكحول افضل ، ومع ذلك ...

- عفواً ؟

- انا افكر باخيك . كان من المستحسن ان يتعاطى الغَول . انا كنت اتناول العقاقير منذ زمن طويل وانا اعلم كم ينظر الناس الى ذلك نظرة سيئة . والغَول نفس الشيء تقريباً . ولكن الناس يتسامحون فيه تسامحاً غريباً . اعتقد انني ساحوّل اخاك الى الغول . فما رأيك في ذلك ؟

ـ رأيت مرة انسانا مدمناً للغول . كنت خارجة لاقوم بزياراتي على رأس السنة عندما لحظت صديقاً لسائقنا نائماً على مقعد معاون السائق وقد زاد وجهه احمراراً عن الوجه المنسوب الى الشياطين وهو يطلق شخيراً خفيفاً . كانت المفاجأة كبيرة بحيث اطلقت صرخة . وقال لي السائق انه سكير مدمن يصعب شفاؤه . فاخرجه من السيارة واخذه على كتفيه . كان جسم ذاك الرجل يتماوج كما لولم تكن فيه عظام . ومع ذلك كان يدمدم باستمرار شيئاً لا ينسى له كانت تلك اول مرة أرى فيها مدمناً للخمر . وقد اثر ذلك في نفسي .

ـ انا مدمن للخمر ايضاً . انتِ تعلمين .

ـ اوه ، ولكن ليس من نفس النوع ، أليس كذلك ؟

ـ وانتِ أيضاً ، تعاقرين الخمر .

ـ كلا ، هذا ليس صحيحاً . لقد رأيت مدمناً حقيقياً وهذا مختلف تماما .

ولأول مرة ابتسم السيد اوبهارا ابتسامة صادقة .

ـ اذن قد لا يتمكن اخوك هو ايضاً من ان يصبح مدمنا للخمر ، ولكن على كل حال سيكون من المستحسن له لو أخذ يعاقر الشراب . سنرى ذلك . سنذهب . ابزعجك ، ولا شك في أنك ستعودين متأخرة الى البيت ؟

ـ ليس لذلك اية اهمية .

ـ في الحقيقة ان هنا اناساً أكثر مما يتحمل ذوقي . يا آنسة ـ الحساب .

ـ هل هذا غال جداً ؟ وإلا فان معي قليلًا من المال .

ـ إذن ادفعي الحساب .

ـ ربما لم يكن معي كفاية .

ونظرت في حقيبتي وقلت للسيد أويهارا ما احمله من المال

– بهذا كله ، تستطيعين أن تشربي في مكانين أو ثلاثة أمكنة . لا تكوني بلهاء .

كلمني كما لو كان يوبخني ثم أخذ يضحك .

– هل تحبُّ ان تذهبَ وتشربَ في مكان آخر ؟

فهز رأسه وعلى وجهه امارات الجدّ .

– كلا هذا يكفي . سادعو لك سيارة تكسي . ينبغي ان تعودي الى بيتك .

وعدنا في الدرج المعتم الذي يصعد من القبو . والتفت السيد اويهارا فجأة ، وكان يسبقني بدرجة واحدة ، وقبلني قبلة سريعة تلقيتها على شفتي المطبقتين اطباقاً وثيقاً . لم أكن أشعر بانجذاب خاص نحو هذا الرجل ، ومع ذلك بدأ « سرّي » يتولد منـــذ تلك اللحظة . وصفق السيد اويهارا بنعليه وهو يصعد الدرجات وتبعته ببطء وذهني نير بصورة غريبة . وعندما وصلتُ خارجاً جعلني هواء النهر احس احساساً رائعاً على خدّي .

واوقف لي « تكسي » وافترقنا دون ان ننبس ببنت شفة .

وعندما اهتززت' في « التكسي » العتيق شعرت بان العالم قد انفتح فجأة ، واسعاً كالبحر . وذات يوم بعد أن وبخني زوجي شعرت بنفسي منهارة وقلت فجأة : « لي حبيب » .

– أنا أعلم بذلك . انه هوزودا ، أليس كذلك ؟ أليس بامكانك التخلي عنه ؟

وبقيت صامتة بكماء .

ومن ثم ، كان هذا الموضوع يعود في كل مرة يقع فيها خلاف بيني وبين زوجي . وفكرتُ : «لقد انتهى ذلك تماماً الآن . وعنـــدما يخطيء المرء في القياسات وهو يفصل قماشة ليخيط ثوباً ، لا يبقى امامه سوى ان ينبذ كل شيء ويعيد الكرة بقماشة اخرى » .

وذات ليلة سألني زوجي اذا كان الطفل الذي احمله هو من هوزودا . فبلغ بي الخوف مبلغاً ارتجفتُ معه من الرأس الى القدمين . انني اتحقق الآن انني وزوجي ، كلانا كنا فتيين جداً . لم اكن اعلم ما هو الحب . ولم اكن افهم حتى الصداقة البسيطة . كنت مجنونة بلوحات السيد هوزودا لدرجة انني كنت اقول بصورة اعتيادية الى جميع معارفي ان جميع ايام الحياة ستكون مليئة بالجمال لمن تكون زوجة رجل كهذا وان الزواج لا معنى له اذا لم يربطك بانسان مزوّد بموهبته . وهكذا كان الجميع يسيئون الفهم اما انا التي لم اكن اعلم شيئاً عن الحب ولا عن الصداقة فكنتُ اقول علناً دون أي ارتباك انني احب السيد هوزودا . ولم احاول قط ان اصحح مدلول كلماتي ، مما عقّد الامور بصورة رهيبة . ولهذا اصبح نفس الطفل الراقد في احشائي موضع شكوك زوجي . ورغم اننا كلانا لم نتكلم صراحة عن الطلاق اصبح الجو اكثر فأكثر بروداً وعدتُ الى بيت أمي . ومات الولد وهو يولد . ووقعتُ طريحة الفراش ـ كان ذلك نهاية حياتي الزوجية .

وربما كان ناووجي قد شعر بنفسه مسؤولا نوعا عن طلاقي فاعلن انـه سيموت بسبب ذلك وتفكك وجهـــه تحت الدموع . وسألته كم بقي عليه للصيدلي . فذكر رقما خياليا . وعلمتُ فيما بعد بأن اخي قد كذب اذ لم يكن

قادراً على الاعتراف لي بالمبلغ الحقيقي الذي كان اكبر بثلاث مرات تقريباً مما قاله لي . وقلت له :

ـ لقد تعرفتُ على عزيزك السيد اويهارا . انه فاتن . الا تجد من الملي ان نذهب احيانا لنشرب معا ؟ لقد اذهلني سعر الساكي الزهيد . سأكون قادرة على تسديد ثمن كل الساكي الذي تستطيع شربه . ثم لا تقلق لدين الصيدلي فلسوف ادبره .

وبدا ناووجي مسرورا بأن يعلم انني كنتُ اعرف السيد اويهارا واحبه . وفي المساء نفسه ، حالما حصل مني على بعض المال ، ذهب مسرعا لعند السيد اويهارا .

قد يكون الانسهام مرضا في العقل . وغنّيتُ بمدائح السيد اويهارا واستعرتُ رواياته من اخي . وبعد ان قرأتُها قلت لناووجي انني اعتبر السيد اويهارا كاتبا رائعا . واندهش ناووجي من كوني استطعتُ ان أفهم ذلك ولكنه بدا سعيداً جدا به وجعلني اقرأ سائر مؤلفات الكاتب نفسه واخذت دون ان اشعر اقرؤه جدّيا بحيث توصلت وناووجي الى التحدث كثيراً عنه . كان ناووجي ينسلّ كل مساء تقريبا ليذهب ويشرب عند السيد اويهارا . وتعود ناووجي شيئاً فشيئاً على تذوق الغَوْل كما خطط لذلك السيد اويهارا . ودون أن يعلم اخي ، سألتُ امي كيف يمكن أن نسدّد حساب الصيدلي . فغطّتْ وجهها بيدها وظلت برهة دون حراك . ثم رفعَتْ عينيها وقالت مبتسمة :

ـ أنا لا ارى اي حل . انا اجهل كم من السنين سينبغي لنا . ولكننا سندفع قليلا منه كل شهر .

ومضت ست سنين منذ ذلك الحين .

وجوه المساء . لابد ان ناووجي ايضا يتألم . وفوق هذا فان جميع السبل مغلقة في وجهه ، فكيف يخرج من الورطة ! فاذا سكر كل يوم فليس الا املا بالموت نتيجة لذلك .

انني اتساءل عما يمكن ان يحصل لو انجرفتُ وتعاطيتُ الفساد بنفسي. ربما قد يسهل ذلك الامور بالنسبة لناووجي .

« انني اتساءل اذا كان ثمة كائن غير فاسد الاخلاق » ،هكذا كتب ناووجي في دفتر ملاحظاته . لقد جعلتني هذه الكلمات اشعر بنفسي فاسدة الاخلاق . وبدا لي خالي وحتى امي نفسها فاسدَي الاخلاق ، ربما كان يعني بالفساد مجرد رقة القلب .

— ٤ —

لم أكن استطيع أن أقرر : هل اكتب اليه ؟ وإلاّ فماذا اعمل ؟ ثم ، في هذا الصباح استضاءت كلمات يسوع هــذه في ذهني : « كونوا حذرين كالحيات ، أنقياء كالحمام » وفي وثبة مفاجئة من الشجاعة قررتُ ان اكتب اليه.

« انا أخت ناووجي . اذا كنت قد نسيتني فأرجوك أن تحاول التذكر .

« عليّ أن اعتذر عن الازعاج الذي سببه لك ناووجي من جديد، وعن المتاعب التي أحدثها لك . (في الحقيقة لا أستطيع أن امتنع عن التفكير بأن من حق ناووجي ان يهتم بشؤونه واني استوجب الهزء اذ اعتذر عنه) . انني اكتب اليك اليوم لأطلب منك معروفاً لا لناووجي بل لي أنا . لقد سمعت من ناووجي ان بيتك القديم قد هدم اثنـاء الحرب وانك اضطررتَ الى الانتقال الى منزلكَ الحالي . كنتُ قد فكرتُ بان اذهب لاراك في بيتكَ الجديد (الذي يبدو لي أنه بعيد جداً في ضواحي طوكيو) ، ولكن صحة أمي كانت مؤخراً سيئة جداً بحيث كان من المستحيل عليّ ان اغادرها لاذهب الى طوكيو . ولهذا قررتُ ان اكتب اليك .

«ثمة مسألة أودّ ان استشيركَ فيها . قد تبدو من وجهة نظر قانون المرأة الساري المفعول حتى الآن مسألة قابلة جدا للمنـاقشة ومعيبة بل واجرامية ولكن ... كلا ، نحن لا نستطيع ان نثابر على العيش كما كنا . فعليّ اذن أن اسألك انت المخلوق الذي يحترمه أخي ناووجي اكثر من أيٍّ كان في العالم ، ان تكون طيباً بمقدار تسمع معه العرض الصادق لمشاعري وان تفيدني بنصائحك .

« ان حياتي الحالية لا تطاق . وليست المسألة مسألة ذوق او كره فنحن (أمي وناووجي وأنا شخصياً) لانستطيع حقاً ان نستمر في الحياة بهذه الطريقة .

« بالامس كنت متألمة ومحمومة . كنت أكاد لا أستطيع التنفس ومرتبكة كل الارتباك ، لم أكن أعلم ماذا افعل بنفسي . وبعد الفطور بقليل وصلت ابنة المزرعة الواقعة على الطريق ، أتت تحت المطر وهي تحمل كيساً من الرز على ظهرها ، فأعطيتها الثياب التي وعدتها بها . وجلست الفتاة قبالتي في غرفة الطعام . وقالت بصوت أشبه حقاً بصوت أهل القبور وهي تشرب الشاي : « كم من الزمن تستطيعون العيش هكذا من بيع ثيابكم ؟ » .

فأجبتها « ستة أشهر وربما سنة » ثم تمتمت وأنا أخفي نصف وجهي وراء يدي اليمنى « أنا ناعسة ، انني احس بنعاس رهيب » .

« هذا لانك متعبة . انه ارهاق عصبي » .

« ربما كنت على حق » . في تلك اللحظة وانا على وشك البكاء صعدت في نفسي كلمتا « واقعية » و « خيالية » . ليس لدي حس الواقعية . ومما يملؤني بقشعريرة باردة كالجليد ان ذلك بالذات ربما يكون هو السبب الذي يتيح لي البقاء على قيد الحياة . ان امي نصف مقعدة وهي تعيش متمددة بقدر ما تعيش واقفة . وناووجي ، كما تعلم ، مريض جـــدا من الناحية العقلية . وعندما يكون هنا يقضي القسم الاكبر من وقته في ذلك البيت الذي يقوم مقام غرفة نوم ومطعم . و كل يومين يأخذ كل المال الذي يأتينا من بيع ثيابنا ويذهب الى طوكيو . ولكن ليس هـذا مايعذبني . أنا خائفة ، فانا ارى بكل وضوح حياتي تتفسخ من نفسها ، كورقة موز تهترىء دون أن تسقط في حين تنقضي يوماً فيوماً دورة وجودي . هاك ما اجد من المستحيل ان اتحمله وهاك لماذا يجب علي ان اهرب من حياتي الحالية حتى ولو كان الثمن خرق قانون المرأة . والآن اطلب منك رأيك .

« اريد الآن ان اعلن بصراحة الى امي والى ناووجي . اريد ان اصرح بوضوح مطلق انني منذ بعض الوقت خليلة احدهم وانني انوي ان اعيش معه . انني متأكدة تماماً انك تعرف من اقصد . الحرفان الأولان من اسمه M.C . [1]فحالما يتأتى حادث مؤلم ، تتملكني الرغبة في ان اركض اليه وأموت حبا بالقرب منه .

« و . M.C مثلك له زوجة وولد . ويبدو ايضا ان له خليلات اجمل مني واصغر سنا ، ولكنني أحس بانني لا استطيع ان استمر في الحياة بدونه. انا لم ار قط زوجة M.C ولكن قيل لي انها ناعمة جدا وطيبة . وفي كل مرة افكر بها اصبح في نظر نفسي امرأة رهيبة . وانا اشعر على كل حال ان حياتي الحالية اشدرهبة وليس من اعتبار يستطيع ان يحول بيني وبين الاستنجاد بـ M.C اود ان احيا حبا فيه « حكمة الحية وطهارة الحمامة » ؟ ، ولكنني متأكدة ان احدا ، لا امي ولا ناووجي ولا بقية الناس ، لن يؤيد عملي . وهكذا الجأ اليك. وبالاختصار ليس لدي حيلة اخرى سوى ان افكر لوحدي واتصرف وفقا لما يبدو لي انه الافضل . ان هذه الفكرة تجعل دموعي تنبجس . انها اول مرة تكون لي فيها قصة وانا اتساءل اذا كان ثمة وسيلة لتجعلها مقبولة لدى من يحيطون بي . لقد ارهقت قواي العقلية كما لو كنت احاول حل مسألة جبرية صعبة بشكل رهيب ، حتى انني وصلت الى التفكير بأن نقطة واحدة ربما تحل المسألة وفجأة استعدت الشجاعة .

---

(١) يرتب الكاتب هنا مفاجأة لا تمكن ترجمتها انه يتلاعب بتماثل الحرفين الاولين في الكلمات التالية My Chékov اي « ياتشيخوفي » (لتشيخوف القصصي الروسي الشهير) و « My child »اي ياولدي و« Man Comédiy » اي«يا كوميدي» او « يامثلي المفضل » وكلها كما يرى القارىء تبدأ بالحرفين M. C. (المترجم).

ولكن ماذا يفكر بي M. C. ، وهو الاساس في هذه القضية ؟ هذا السؤال يؤنسني فكأنني اذا صح التعبير امرأة تحاول فرض نفسها.. تفرض نفسها الذي من وبأية صفة ؟ صفة زوجة ؟ هذا غير صحيح . صفة خليلة ، لنقل ربما ، ولكن اذا قال M. C. انه لا يستطيع حقاً ان يتحملني فلا يبقى لي ما اقوله . اذن ثمة خدمة اريد ان اطلبها منك : هل تريد ، ارجوك ، ان تسأله ؟ ذات يوم ، منذ ست سنوات تكوّن في صدري قوس قزح شاحب باهت . لم يكن الحب ولا الشغف ولكن الوان قوس القزح هذا تعمقت واشتدت مع مرور الزمن . انه لم يغب قط ، لحظة ، عن ناظري . ان قوس القزح الذي ينتشر على اثر زخة المطر يمّحي بعد قليل ، ولكن الذي يضيء القلب البشري فجـــأة لا ينطفىء هكذا . فارجو منك ، اسأله . انا اتساءل ماذا يفكر حقاً عني . انا اتساءل اذا كان قد فكر بي كما بقوس قزح منتشر في السماء بعد زخة المطر . واذا كان قوس القزح هذا قد تلاشى الآن ؟

« اذا كان الجواب نعم وجب عليّ ان امحو قوس قزحي . ولكن قوس القزح الذي في قلبي لن ينطفىء ابداً الا ، اللهم ، بازالة حياتي اولاً .

اتوسل ان اتلقى جوابا .

الى السيد اوبهارا جيرو (تشيخوفي (M. C. V.)

حاشية لقد سمنت قليلاً منذ بعض الوقت . وانا افكر بان السبب هو انني اصبحت مخلوقة اقل حيوانية ولكن اكثر انسانية او بالاصح « مؤنسنة » . في هذا الصيف قرأت رواية (واحدة فقط) من تأليف د. هـ. لورنس » .

» دون جواب منك اكتبُ مجدداً . كانت الرسالة التي بعثتها اليك في

المرة السابقة مليئة بالالغاز والاقوال المبطّنة . وانا افترض انك نفذت اليهـــا جميعاً . نعم هذا صحيح . لقد حاولتُ ان اضع اكثر ما يمكن من التلميحات بين جميع سطور تلك الرسالة . واتصور انك فكرت بان قصدي لم يكن سوى سلبك مبلغاً من المال ينقذ حياتي . انا لا انكر ذلك . بيد انني أودّ ان احيطكَ علماً ، واعذرني اذا قلتُ لك ،انني لو كانت رغبتي الوحيدة هي ان يكون لي من يحميني لمااخترتك بالذات. فلديّ الشعور بانالكثيرين من الرجال المسنين الاثرياء يكونون سعداء بان يعيلوني . وفي الواقع ، انني منذ زمن غير بعيد ، تلقيتُ عرضا من هذا النوع ، وربما كنت تعلم اسم الشخص ، انه أرمل تجاوز الستين واظنه عضواً في اكاديمية الفنون ، لقد اتى ذلك الفنان الكبير الى جبالنا ليطلب يدي . كان احد جيراننا عندما كنا نسكن في شارع نيشيكاتا وكنا نلتقيه احيانا في اجتماعات الجـــيران. وذات يوم ، ذات مساء خريفي اتذكره ، بينما كنتُ امر في سيارة مع امي امام بيت ذلك الفنان ، كان هو واقفاً امام بابه وقد بدا حالماً . وحيّت امي تحيةً صغيرة من نافـــذة السيارة فاضاء الوجه المكمد الكئيب لرؤيتها فجأة واحمر احمراراً شديداً .

« فقلت مازحة » انا اتساءل ما اذا كان هذا حبّاً . انه مغرم بك ياامي !» .

« فاجابت امي بهدوء كانها تكلم نفسها « كلا . انه رجل عظيم » .

يظهر ان من تقاليد اسرتنا تكريم الفنّانين .

« وقد ارسل الفنان يطلب يدي من أمي بوساطة أمير ما ، هو أحد اصدقاء خالي واداً شارحاًبانه فقد زوجته منذ بعض السنين . فنصحتني أمي بأن أجيب الفنان مباشرة بالطريقة التي اعتبرها ملائمة لي . ودون ان افكر طويلاً في الامر ، كتبت بطاقة قصيرة لاقول انني لم تكن لدى اية نية في الزواج ثانية.

« وسألتْ أمي « ألا تأسفين لانني رفضت ؟ »

ــ « كنت نفسي اجد هذا الزواج غير معقول » .

« ارسلت كتابي بالرفض الى الفنان في دارته في كارويزافا (١) . وبعد ذلك بيومين اعاد الكرة طالباً اذ لم يكن قد تلقى رسالتي بسبب ذهابه قبل يومين الى مياه ايزو الحارة . وهكذا كتب يطلب بان يزورنا زيارة قصيرة لدى مروره من هناك في طريقه الى ينابيع المياه الحارة . يظهر ان الفنانين يسمحون لانفسهم في اي سن كان ان يقوموا بهذه الصبيانيات .

« ولما لم تكن امي في صحة جيدة فقد استقبلته في الردهة الصينية . وقلت له وانا اصب له الشاي « اظن ان رسالتي بالرفض قد وصلت الآن الى كارويزافا . لقد فكرت جيداً ، ولكن ... » .

- « حقاً ؟ » قالها بشيء من نفاذ الصبر (فقد مسح وجهه) . وتابع « آمل ان تعيدي التفكير في الموضوع . فربما استطيع ــ كيف أقول ــ ان امنحك مايسمى السعادة الروحية ، ولكنني أستطيع من ناحية أخرى أن اجعلك سعيدة جداً من الناحية المادية . هذا على الاقل يمكنني ان اؤمنه لك . آمل ان لا يكون تعبيري بدون لياقة .

« أنا لا أفهم جيداً هذه السعادة التي تتحدث عنها . قد يبدو هذا مزعجاً جداً ولكنني أستطيع فقط ان اجيبك كلا ، شكراً . انني من اللواتي يصفهن نيتشه بهذه الكلمات : امرأة تريـــد ان تلد للحياة ولداً . انني اريد ولداً . فالسعادة لاتهمني . انا أتمنى ايضاً بعض المال ولكن بالقدر الكافي تماماً لتربية ولدي » .

---

(١) مكان للاصطياف في الجبال (ملاحظة من المترجم)

« وابتسم الفنان بصورة غامضة وقال « انك امرأة غريبة جـداً انك تعلمين كيف تصوغين في كلمات ما يفكر به كل انسان - ان من شأن الحياة معك ان تجدد الهام اعمالي الفنية » .

« لقدصاغ هذه الفكرة المؤثرة الى حد كاف،بطريقة غيرمألوفة البتـة لدى رجل مسن واتتني الفكرة بأنه اذا كان حقاً من طبيعة قدرتي ان تجدد الشباب في عمل فنان عظيم كهذا فان ذلك قد يكون ايضا بالنسبة الي مبرراً للحياة. ولكن أي جهد يبذله الخيال لم يكن يسمح لي بان أتصور نفسي بين ذراعي هذا الفنان .

« وسألت بابتسامة صغيرة » ألا تعلق أهمية على كوني لا أحبك » ؟ .

« فأجاب برصانة » هذا لا قيمة له بالنسبة لامرأة . فيمكن لامرأة أن تكون لديها مشاعر غير واضحة .

« ولكن امرأة مثلي لا تفكر بأن تتزوج دون حب . أنا امـــرأة ناضجة . ففي السنة القادمة ابلغ الثلاثين » . وبصورة لاشعورية تمنيت أن أسد فمي بيدي .

ثلاثون عاماً « قليل من عطر الفتاة يبقى في المرأة حتى سنتها التاسعة والعشرين ولكن شيئاًمنه لا يبقى في جسد المرأة عندما تبلغ الثلاثين » .ولدى تذكري فجأة هذا المقطــع من رواية فرنسية قرأتها منذ زمن طويل لفتني كآبة مبهمة السبب لم أستطع لها دفعا . ونظرتُ خارجاً . كان البحر المغمور بضوء القمر يتلألأ بلمعان باهر كقطع جليد محطم . وتذكرت انني حين قرأت تلك الكلمات من الرواية ايدتها مرجحة صحتها . واحسستُ بحنين حاد الى

ذلك الزمن الذي كنت استطيع فيه ان افكر بلامبالاة بأن حياة المرأة تنتهي في الثلاثين . وتساءلت اذا كان جسدي يفقد شيئاً من عطر الفتاة في كل مرة أبيع فيها سواراً أو عقداً أو فستاناً . امرأة بالية . امرأة في سن النضوج . ومع ذلك فحياة امرأة في سن النضج ما تزال تحتوي حياة نسائية ، أليس كذلك ؟ هذا ما اكتشفته مؤخراً . واتذكّر ما قالته لي معلمتي ، وهي انكليزية ، عندما كنت في التاسعة عشرة من عمري وكانت هي تستعد للعودة الى بلادها « يجب ان لا تكوني عاشقة ابداً . فالحب سيجلب لك الشقاء . واذا كان لابد لك من الحب فليكن ذلك عندما تصبحين مسنّة ، بعد تجاوز الثلاثين » .

« لم تستطع كلماتها ان تثير فيّ سوى شعور غامض بعدم اليقين . كان مستحيلاً عليّ في ذلك الحين أن أتصور الحياة فقط بعد مرور الثلاثين .

« واستأنف الفنان الكلام فجأة بصوت مصطبغ بالازدراء » «سمعتُ من يقول انكم تبيعون بيتكم . وانا اتساءل اذا كان هذا صحيحاً » .

« وضحكت ضحكاً صاخباً وقلتُ « المعذرة » ولكن هذا يجعلني افكّر « ببستان الكرز » انا افترض انك ربما احببتَ أن تشتريه » .

فغضّ شفتيه بتكشيرة مُرّة ولم يُجرِ جوابا . وكفنان من مرتبته ، كان سريعاً في حزر ما اضمرته .

« صحيح انه ورد بحث بيع البيت الى احد الامراء ولكن ذلك لم يصل الى نتيجة وقد دهشت لوصول هذه الاشاعة الى مسامع الفنان . ولكن تمثيلنا اياه بشخصية لوباخين في « حديقة الكرز » كان مسيئاً لدرجة افقـــدته البشاشة وبعد بضع دقائق من احاديث لا طعم لها ، انسحب .

« ان ما أطلبه منكَ اذن ليس ان تصبح لوباخين . هذا ما اضمنه لك. ولكنني ارجو منك ان تصغي الى تمنيات امرأة ناضجة السن .

ها قد مرت ست سنوات على تعارفنا . في ذلك الحين لم اكن اعرف شيئاً عنك سوى انك كنت استاذ اخي ، وكنت استاذ الشؤم بقدر كاف . وشربنا معاً ساكي في كؤوس وكنتَ جريئاً قليلاً . ان ذلك لم يزعجني ابداً. ان ذلك اعطاني شعوراً بخفة جسدية . ولم احبك لذلك ولم اكرهك : لم احس منه باية عاطفة . وفيما بعد استعرت من أخي بعض رواياتك وقرأتها مجاملة له . كنتُ اجدها احيانا هامة واحياناً عادية . اما في السنوات الست الاخيرة ،ولا استطيع ان اقول بالضبط منذ متى . فان ذكراك تُندّيني كضباب نفّاذ ، وما فعلناه ، ذلك الليل في درج القبو يراودني بالاعتقاد انني احياه من جديد . ويبدو لي احياناً ان تلك اللحظة كانت رئيسية الى حد تقرر معه مصيري . انني افتقدتك . من الممكن ، على ما اعتقد ، ان يكون هذا حباً ، وهذه الامكانية تذيبني الى درجة ان حدث لي ان استسلمت لنوبة حركت دموعي . انك تختلف تماماً عن سائر الرجال . انا لستُ عاشقة لكاتب مثل نينا في قصة « زمّج الماء » (لامويت) ولست مفتونةً سَحَرَها الروائيون . واذا كنت تعتقد انني « امرأة ادبية » او اي شيء آخر من هذا النوع فانت مخطىء . انني أريد ولداً منك .

لو كنا تعارفنا منذ زمن طويل ، بعيد ، عند ما كنا ما نزال كلانا عازبين ، ربما كنا تزوجنا وتفاديتُ آلامي الحالية ، ولكنني سلّمتُ بعدم التمكن ابداً من الزواج بك . وفي رأيي ان محاولة الحلول مكان زوجتك

ستكون عملاً عنيفاً ووحشياً وسأكره نفسي بسبب ذلك . انا اقبل بان اصبح خليلتك . (انا اكره بصراحة هذه الكلمة ، ولكنني وقـــد كدت اكتب « صديقتك » ، فهمت ان ذلك يعني ما يُعْنَى عموماً بكلمة « خليلة » فقررت ان اقول هذا دون مواربة) انا اعلم ان للخليلة دوراً عقوقاً . ويقال انها تُهجر حالما تكف عن اسداء السرور وان الرجل مهما كان ، يعود دائماً الى زوجته عندما يقارب الستين . أتذكّر انني سمعت مرضعتي ورجلاً مسنّاً في شـــارع نيشيكاتا يناقشان المسألة ويخلصان الى الاستنتاج بان حالة الخليلة هي مايجب ان لا تقع فيه امرأة . ولكنهما كانا يتكلمان عن خليلة عادية وانا اشعر بان حالتنا تختلف .

« اعتقد ان عملك الادبي هو اثمن شيء بالنسبة اليك وان العلاقة الحميمة معي ، اذا كنت تُحبُّني ، تستطيع ان تسّهل عملك . وقد تقبل زوجتـــك عندئذ بعلاقاتنا . انا اعلم ان هذه الطريقة في النظر الى الامور قد تبدو سفسطة غريبة ، ولكنني متأكدة من ان محاكمتي لا خطأ فيها .

« المشكلة الوحيدة هي جوابك . هل اروق لك ام لا اروق ؟ او ، ألا تشعر باية عاطفة نحوي ؟ انا مرتعبة مما يمكن ان تجيبني به ولكن ينبغي مع ذلك ان اسألك . كتبتُ في رسالتي السابقة انني عاشقة تسعى الى فرض نفسها وانا انوّه في هذه بغرور امرأة ناضجة السن . ويخطر ببـــالي الآن انك اذا لم تجيبني فلن يبقى امامي ما آمله وسيكون محكوماً عليّ بالارجح ان أجرجر وحدي بقية عمري . فانا ضائعة اذن اذا لم تجبني بشيء .

كثيراً ما تصف من رواياتك قصصاً غرامية ويتحدث الناس عنك كما لو كنت عفريتاً حقيقياً ، ولكن بدا لي فجأة انكَ بالضبط ، ودون شك ، مدافع

عن الحس السليم . وأنا نفسي لا افهم الحسْ السليم . واعتقد ان الحياة الجيدة هي ان اتمكن من عمل ما أريد . والحال انني اريد ان أهب الحياة لولدك . انا لا أريد بأية ذريعة ان احمل ولد غيرك . انا اطلب رأيك . فاذا كنت تعرف الجواب فأرجو منك ان تعطيني اياه . ارجو منك ان تقول لي بصراحة ماذا تفكر .

« لقد توقف المطر وهبت الريح . الساعة الان الثالثة بعد الظهر . سأخرج لا تناول جرايتنا أي ستة غووات[1] من الساكه من اجود الانواع . سأضع زجاجتي روم[2] فارغتين في حقيبة وهذه الرسالة في جيبي وبعد ست دقائق اكون على طريق القرية في أسفل الجبل . لن أدعَ أخي يشرب هذا الساكه . بل أنوي ان اشربه بنفسي . وكل مساء اشرب قليلا منه في كأس . فأنت تعلم ، ينبغي شرب الساكه في الكأس .

ألا تريد أن تأتي الى هنا ؟

الى السيد « M. C. » ....

« لقد امطرت أيضاً اليوم . ويتصاعد خليط غير منظور ، خليط مخيف من الضباب والمطر . كنت انتظر جوابك كل يوم دون أن اجرؤ على مغادرة البيت . ولكن شيئــاً لم يحدث . ماذا تفكر ؟ انني اتساءل ما اذا كنتُ قد ارتكبتُ حماقةً في رسالتي الماضية بالتحدث معك عن ذلك الفنّان . ربما فكّرتَ بانني نوهت بطلبه لاثير غيرتك . ولكن شيئاً لم ينتج عن ذلك منذ بعض الوقت ، وبصورة مفاجئة ، اخذت وأمي نضحك لمسألته . لقد شككت

---

(١) غو وحدة قياس كيلية . ستة غووات تعادل ١،٠٨ لتر .

(٢) الروم نوع من الخمور الشديدة .

امي مؤخراً من ألم في لسانها ، ولكن الألم خف كثيراً بسبب «معالجة تجميلية» وصفها ناووجي وهي تبدو منذ بعض الوقت احسن بكثير .

« منذ بضع دقائق كنت على الشرفة ، كنت ، وانا انظر الى المطر يتطاير ويلتف كالاعصار ، اسعى لاعرف ماذا يمكن ان تكون مشاعرك .
وفي تلك اللحظة بالذات ارتفع صوت امي في غرفة الطعام . اذ قالت :

« انا اغلي الحليب . تعالي اذن . الطقس بارد جدا اليوم ، لقد سخنت الحليب جيدا » .

وبينما كنا نشرب الحليب المتبخر ، تحدثنا عن الفنان . وقلتُ :

« انا واياه لسنا متناسبين البتة ، اليس كذلك ؟ » فاجابت امي بهدوء:

« كلا انتما غير متناسبين ابدا » .

« نظراً لمزاجي الجموح وذوقي الميـال الى الفنانين لاسيما وهو يبدو صاحب مداخيل ضخمة ، كان هـذا الزواج يبدو جيدا ولاشك . ولكنه مستحيل تماما » .

وابتسمت امي وقالت :

« كازوكو انت ابنة خبيثة . اذا كنتِ واثقة الى هذا الحد ان ذلك الزواج كان مستحيلا فلماذا استبقيته بتلك الطريقة وثرثرتِ بكل تلك اللذة اثناء زيارته ؟ انا لا استطيع ان اتصور ماذا كان الباعث لديك » .

« أوه ، لان ذلك الحديث كان هاماً . كنتُ اتمنى ان اتحدث عن اشياء اخرى كثيرة فانا لستُ كثيرة الاحتشام كما تعلمين » .

« كلا ، انتِ لا تدعين الحديث يصبح مملا ، يا كازوكو ! »

« كانت امي باشّة جداً اليوم . ولاحظتْ انني صنعت شعري البارحة بشكل كعكة لأول مرة فقالت :

« ان هذه الزينة تناسب النساء القليلات الشعر . ولكعكتك مظهر بارز من الأبهة . ولا ينقصها سوى دبوس ذهبي . وفي رأيي انه خطأ » .

« أنا اشعر بالخيبة . ألم تقولي لي يوماً ان رقبتي جميلة جداً وانني يجب ان احاول كشفها ؟ هل هذا صحيح ؟

« بلى ، يبدو لي انني اتذكر شيئاً من هذا القبيل » .

« انا لا انسى ابداً ما يُوجَّهُ إليّ من مديح . انا مسرورة من انك تتذكرين ذلك » .

« لابد ان السيد الذي اتى منذ ايام قد قال لكِ بعض المجاملات » .

« نعم ، فعلا . ولهذا لم ارد ان ادعه يفلتُ من مخالبي . قال لي ان وجودي يجعل امامه ... كلا لا استطيع ان اكمل . ان الفنانين لا يثيرون نفوري ولكنني لا استطيع ان احتمل ايا كان يتخذ وضعاً مهيباً كرجل قوي الشخصية » .

« اي نوع من الرجال هو معلم ناووجي ؟ » .

« وشعرتْ بقشعريرة تنساب في جسمي »

« انا لا اعرف ذلك بصورة اكيدة ولكن ماذا يمكن التوقع من معلم ناووجي ؟ يبدو عليه انه يحمل طابع رجل ماجن » .

« فهمتْ امي مع نظرة مرور . انه « يحمل طابع » ؟ الصيغة مسلّية . اذا كان يحمل طابعا ما افلا يجعله ذلك اقلّ خطراً ؟ انه يبدو ناعما

الى حدما كهربو يحمل جلجلا في عنقه . فالمزاج المنحـل بدون طابـع ، هذا ما يخيفني » .

« انا اتساءل لماذا » .

« كنتُ سعيدة ، وسعيدة جداً . ظننتُ انني اشعر بجسمي ينحل ّ الى دخان ويُحمَلُ عالياً الى السماء . هل تفهم ؟ هل تفهم لماذا كنت سعيدة الى ذاك الحد ّ ؟ ان كان « كلا ّ » فانت تستحق الجلـْد !

« الا تريد ان تأتي الى هنا ؟ سأطلب من ناووجي ان يأتي بك، ولكن هذا الطلب قد يبدو غريباً وغير طبيعي . وقـد يكون من الافضل ان تظهر فجأة كما لو كنت تنصاع لاحدى نزواتك . وليس من بأس ان تأتي مع ناووجي غير انه قد يكون من الافضل أن تأتي من نفسك في يوم يكون فيه ناووجي في طوكيو . فاذا كان ناووجي هنا فسيستأثر بك ّ حتما وسوف يذهب بك لتشربا عند اوساكي ويكون هذا كل شيء .

« لقد كانت اسرتي دائماً خلال اجيال ذات التفات الى الفنّانين . فقد قضى الرّسام كورين نفسه سنوات في بيتنا العائلي القديم في كيوتو ورسم فيه لوحات جميلة . انا متأكدة من ان امي ستكون سعيدة جداً لو أتيت . ستقيم اذ ذاك على الارجح في الغرفة الصينية الطراز في الطابق الاول . ارجو منك ان لا تنسى ان تطفىء النور وساصعد السلـّم في الظلام وفي يدي شمعة ّ صغيرة . كلا . سيكون هذا تسر ّعاً على ما افترض !

« انا احب الناس الماجنين ، لاسيّما من يحملون طابعهم الخاص . وأود ان أفسد نفسي ايضـــاً . اشعر انه ليس لي طريقة اخرى لأعيش . وانت في اليابان ابرز مثال للمنحل ّ كما اظن . قال ناووجي ان كثيرين من الناس يعتبرونك

قذراً يقزز النفس وانك مكروه وكثيراً ما تُهاجَم . هذه القصص لاتحملني الا على حبك اكثر فاكثر . انا متأكدة ، نظرا لمن انتَ ، ان عندكَ شتى أشكال الصديقات ولا بد . اما الآن فسوف تتوصل شيئا فشيئا الى ان لاتحبّ سواي . أنا لا استطيع ان امتنع عن التفكير بهذا . فعندما تعيش معي ستشتغل في جو السعادة . منذ طفولتي قيل لي ان المكوث معي يعني نسيان الضجر والملل . انا لا اعلم ما هو التكدير . لقد وجدني الناس دائما فاتنة . ولهذا فانا واثقة انني لايمكن ان اقع من نفسك موضعا سيئا .

« سيكون طيّباً جدا لو استطعنا ان نلتقي ! لم اعد في حاجة الى جواب منك ولا الى اي شيء من هذا القبيل . انا في شوق الى رؤيتك . وافترض ان الاسهل علي هو ان اذهب لعندك الى طوكيو ، ولكنني ممّرضة امي وخادمتها ؛ وانا اساعدها باستمرار ؛ وقد لا استطيع فعلا ان أتركها . فارجوك ، احضر الى هنا . أريد ان اراك ولو مرة واحدة . عند ذاك قد تفهم كل شيء . سترى الخطوط الصغيرة التي انحفرت على جانبي فمي . ستلمح تجاعيد تعاسة الجيل . انا واثقة من ان وجهي سيعرب لك عن مشاعري اكثر من الكلمات .

« كانت رسالتي الأولى تلمح الى قوس قزح منشور في صدري . وليس لقوس القزح هذا بهاء الشرر او النجوم . ولو كان بتلك الخفّة او ذاك البُعد لما تألمتُ كما أتألم ، ومن المرجح انني كنتُ سأنساك مع الزمن . فقوس القزح المنتشر في نفسي جسر من اللهيب ، والاحساس به حاد حتى انه يحرق صدري . ولا يمكن ان تكون الحاجة الى المخدرات لدى متسمّم محروم من العقاقير مؤلمةً بهذا المقدار . انني واثقة من انني غير مخطئة وان هذا ليس

فساداً اخلاقياً من جانبي ، ولكن ، رغم انني مقتنعة بذلك كل الاقتناع ، فانا إرتعش احيانا لدى التفكير بانني يمكن ان ارتكب عملا جنونيا خارقا . وانا اتساءل احيانا ما اذا كنت اصبحت مجنونة . ومع ذلك فانا قادرة احيانا على وضع مشاريع وانا مالكة زمام نفسي . ارجوك ، تعالَ الى هنا ، مرة واحدة فقط ، ان اي يوم كان ، واية ساعة كانت سينا سباني . لن اعود اعمل شيئاً سوى ان انتظرك ، دون ان اخرج . اتوسل اليك صدّقني .

« تعالَ لِتَرَني مرة أخرى وعند ذاك ، اذا لم اعجبك ، قل لي ذلك ببساطة . النار التي تضطرم في صدري . انتَ الذي اشعلتها ، وعليك انت ان تطفئها . انا لا أستطيع التخلص منها بجهودي وحدها ، دون مساعدة . فلو تلاقينا ثانية ، لو استطعنا ان نشاهد بعضنا مرة اخرى ، فأنا أعلم انني سانجو . لو كنا في أيام مانيوشو أو قصة جنجي[1] لما كان في ما قلته شيء شاذ ، أما اليوم ... آه ان طموحي هو أن اصبح خليلتك وأم ولدك .

« لو كان ثمة انسان قادراً على ان يضحك من رسالة كهذه لسخر هذا الانسان من الجهود التي تبذلها امرأة لتستمر في الحياة ، لجزيء من حياة امرأة . والحال انني اختنق بالهواء الخانق في الميناء . انني اطمح الى ان انشر أشرعتي في عرض البحر حتى ولو هبّت فيه عاصفة . إن الاشرعة المتدلّية تبقى دائماً وسخة . اما الذين يمكن ان يسخروا مني فهم بنفس المقدار أشرعة مطوية . انهم لا يستطيعون شيئاً .

---

(١) « المانيوشو » مجموعة شعرية من أواسط القرن الثامن . وقصة جنجي من تأليف امرأة تدعى مورازاكي شيكيبو كتبتها حوالي السنة ١٠٠٠ (ملاحظة من المترجم) .

« امرأة ، هذا شيء مربك . اما في هذه الحال ، فأنا من أتألم اكثر الألم . ان غريباً لم يتعذب قط ولو بجزء صغير مما تحملته ، يرى من الجنون ان ازعم انني احاكم نفسي في حين يترك اشرعته المتدلّية تتسخ . أنا لا أرغب البتة في أن ينتحل آخر لنفسه حق تحليل افكاري . انا اعيش دون ان افكر . انا لم اتصرف قط ، باوسع معاني كلمة « قطّ » باسم اي مذهب او اية فلسفة .

« انا واثقة من ان هؤلاء النــــاس الذين يعتبرهم العالم طيبين جديرين بالاحترام جميعهم كذّابون متصنّعون . أنا لا أثق بالناس . وحليفي الوحيد هو المنحل الذي صار الانحلال شخصية له . المنحل هذا هو الصليب الوحيد الذي أتمنى أن أُصْلَبَ عليه . وحتى لو شجبني عشرة آلاف شخص لرددت اليهم لومهم قائلة : ألستم خطرين بقدر ما انتم لا تحملون سمة خاصة ؟

« هل تفهم ؟

« الحب لا عقل له ولا مبرر ، وقد اسرفت في شرحي لك هذه الحجج التي تبدو عقليه . لديّ شعور بأنني أقلّد أخي بكل بساطة قلب . كل ماأريد أن اقوله هو انني انتظر زيارتك . أريد أن أراكَ ثانية . هذا كل شيء .

« الانتظار . اننا نحس في الحياة بالفرح والغضب والحزن ومئة شعور آخر . ولكن مجموع هذه المشاعر يكاد لا يشغل واحداً بالمئة من وقتنا . اما التسعة والتسعون بالمئة ، الباقية فقوامها الحياة من الانتظار . انني انتظر ، مع هذا الشعور الذي يجعل قلبي يدقّ حتى يكاد ينقطع ، انتظر في كل لحظة انني سأسمع وقع خطى السعادة في الممر . ولكنه السكون . آه ان الحياة مسرفة في الإيلام ، ان الواقع يثبت صحة الاعتقاد الشامل بأن من الافضل للانسان ان لا يولد .

« وهكذا ، انتظر كل يوم ، من الصباح حتى المساء ، انتظر ، يائسة ، انتظر شيئاً ما . هذا مفرط في القساوة . أود ان اكون سعيدةً بكوني وُلِدْت ، بكوني حيّة ، بكوني افكّر ان ثمّة عالم وبشر .

« ألا تريد أن تنبذ الاخلاق التي تكبحك ؟

الى « .M . C »

(وهي ليست الأحرف الأولى من « تشيخوف » My Chikov . فأنا لست عاشقة لكاتب ياولدي My Child) .

ـ ٥ ـ

ارسلت اليه ثلاث رسائل في هذا الصيف . ولكن لم يأتِ منه اي جواب. كان شعوري خلال هذه المدة انني لا أستطيع ان اعمل شيئاً آخر ووضعت في هذه الرسائل الثلاثة كل ما كان يعتلج في قلبي . وضعتها في البريد بشعور من يقفز من رأسٍ مُرتفعٍ الى أمواج البحر المائجة ، ولكنني لم أتلق جواباً رغم انتظاري الطويل ، الطويل .

وسألت اخي ناووجي بدون اكتراث عما جرى لذاك الرجل .فأجاب ناووجي انه مايزال على عادته وانه كان يقضي جميع لياليه في الشرب وان انتاجه الادبي اخذ يقتصر على مؤلفات اكثر فأكثر لا أخلاقية وانه اصبح موضع الازدراء ، بل الاشمئزاز من جانب جميع الناس اللائقين . وفوق هـذا كان يدفع ناووجي الى انشاء دار للنشر ، وهي نصيحة كان ناووجي يتعطش الى اتباعها . وكمسعى أولي ، قام ناووجي باقناع اثنين او ثلاثة من كتاب الروايات بأن يتخذوه عميلاً لهم . واصبحت المسألة كالتالي : هل ينجحون في اكتشاف من تكون لديه الرساميل الكافية لتمويل العملية ؟ وبـــدا لي بوضوح اكثر فأكثر وانا اصغي الى ناووجي ان اية نفحة صغيرة من عطري لم تصل الى جو الرجل الذي كنت احبه . ولم اشعر من ذلك بالخجل بقدر ما شعرت بان العالم الواقعي جسم مجهول ، يختلف كليا عن عالم تخيلتي وعندئذ ضيق علي الخناق شعور باليأس أشد من كل ما عرفته سابقاً كما لو انني تُرِكتُ وحدي عند هبوط الليل ذات شتاء في صحراء لا يمكن ان يستجيب فيها أي صوت لندائي مهما تكررت . وتساءلت في نفسي : هل هـــذا هو ما تعنيه هذه العبارة

القارصة : الحب الخائب ؟ هل انا محكوم عليّ بأن أموتَ راجفة من رطوبة الليل ، وحيدة في الصحراء حيث غابت الشمس فيها كليا عن النظر ؟ وارْتَعَشَ كتفاي وصدري لذلك ارتعاشا عنيفاً في حين عرتني لتخنقني شهقة جافة .

لم يبق لي سوى أن اذهب الى طوكيو مهما كلف الامر وارى السيداوبهارا . كانت اشرعتي منشورة وسفينتي قد غادرت المرفأ . انا لا استطيع ان انتظر بعد الآن ، ينبغي لي ان اذهب حيث اذهب . هذا مافكرتُ بـه وانا ابدأ سراً بتحضير الرحلة الى طوكيو عندما تطوّرت صحة أمي بصورة غير متوقّعة .

فذات ليلة اخذ يعذّبها سعال رهيب . وعندما أخذت حرارتها كانت قد وصلت الى ٣٩ درجة . وتمتمت أمي بين تشنجات السعال :

ـ يجب ان يكون هذا بسبب برد هذا اليوم . غداً أتحسن .

غير أن ذلك لم يكن يبدو مجرد نوبة سعال ومن باب الاحتراز قررتُ ان استدعي الطبيب في الغداة .

وفي صبيحة اليوم التالي كانت حرارة أمي قد عادت الى ٣٧ درجة ، وخف سعالها كثيراً . ومع ذلك ذهبتُ ارجو من الطبيب ان يحضر ليفحص امي ووصفت له ضعفها الاخير وحرارتها في الليلة السابقة واضفت الى ذلك رأيي ان هذا السعال لم يكن متأتياً عن ترشيح بسيط . فقال الطبيب :

ـ سأذهب لرؤيتها . وبانتظار ذلك خذي هذا لك .

واخذ ثلاث اجاصات من رف في زاوية مكتبه وقدّمها اليّ . وبعد الظهر بقليل وصل في ثيابه الاحتفالية . وكالعادة قضى وقتاً لا ينتهي في فحص امي وجسّها ثم قال اخيراً :

ـ لا تقلقي . اذا اخذت امك هذا الدواء فستشفى .

وجدته مضحكا على شكل غريب ولكنني كبتُّ ابتسامتي لأسأله :

ـ بدون « ابرة » ؟

فأجاب برصانة ووقار :

هذا ليس ضرورياً نحن أمام تبرد بسيط فاذا بقيت امك هادئة ، اعتقد اننا سنخلّصها منه بسرعة .

ولكن حرارة امي لم تختف حتى بعد اسبوع . كانت تسعل اقل من السابق ولكنّ حرارتها كانت تتراوح بين ٣٧،٧ درجة و٣٩ درجة مساء . وفي هذه الظروف بالضبط وقع الطبيب طريح الفراش بسبب اضطراب في الامعاء . وذهبتُ استحضر دواء من عنده ، ولما رأيتُ الممرّضة انتهزتُ الفرصة لأصِفَ حالة امي غير المشجعة . ونقلتِ الممرضةُ هذه الاخبار الى الطبيب الذي بعثها لتجيبني : « انه ترشح بسيط يجب ان لا يُقلِقَ ابــداً » . وأعطيتُ دواء للشرب ومسحوقاً .

كان ناووجي على عادته في طوكيو . كان قد ذهب اليها منذ اكثر من عشرة ايام . ولما وجدتُني وحيدة منهارة القوى للغاية ، أرسلتُ بطاقـة بريديّة الى خالي وادا لأخبره عن تغيّر صحة امي .

وبعد بضعة ايام أتى طبيب القرية ليعلن لنا أن اضطراب أمعائه قد انقضى أخيرا .

وفحص امي وعلى وجهه امارات التركيز الشديد . وفجأة صاح :

ـ فهمت ! أنا أرى ما الأمر !

والتفتَ اليّ وقال :

- اكتشفتُ سبب الحمّى . الرئة اليسرى مغشّاة . على كل حال ليس في الأمر ماينذر بالخطر . ستستمر الحرارة في حالها على الارجح . لكن اذا بقيتْ امكِ هادئة فليس ثمة داع للقلق .

وقلتُ في نفسي « انا اشك في ذلك » ولكن ، كما يتعلق الغريق بقشة ، أخذت استقي من هذا التشخيص ما استطعته من عزاء .

وبعد ان استأذن الطبيب بالانصراف ، قلتُ بصوت عال :

- أي عزاء يا امي ! غشاء بسيط فقط ولكن ، اوه ! كثيرون من الناس معهم شيء من ذلك . اذا استطعتِ الاحتفاظ بأنسكِ فستشفين بسرعة. الطقس غير طبيعي هذا الصيف ! هذا هو سبب مشاكلنا . انا اكره الصيف . واكره ايضا ازهار الصيف .

فابتسمَتْ امي مغمضةً العينين :

- يقال ان الناس الذين يحبّون زهور الصيف يموتون في الصيف وكنت اتوقع ان اموتَ في هــذا الصيف ، ولكن مادام ناووجي قد عاد فقد اتحمّل حتى الخريف .

كان من العسير عليّ أن ارى كل اهتمام تبديه امي بالحياة يدور حول عودة ناووجي مهما كانت حاله .

- والآن ، مادام الصيف قد انتهى ، فهذا يعني اننا اجتزنا النقطة الحرجة من مرضكِ ، اليس كذلك . امي ، ان جفنــةَ النفل التي في الحديقة

مزهرة . كما ان النار دينة والكزبرة والعصورية . . . الحديقة كلها تعطر الخريف . انني واثقة أن حرارتكِ ستسقط حالما يحل تشرين الاول .

انني اصلي ليتحقق ذلك . أي تخفيف عن النفس سيكون بعد انقضاء حرارة ايلول الدبقة الدائمة ! عندئذ ، عندما تصبح الأقاحي مكسوة بالزهر وعندما تتعاقب ايام الصيف الجميله بعيد سان مارتن ، ستزول حرارة امي بكل تأكيد ستتقوى وسأتمكن من الذهاب لأراه . ربما ان مشروعي سيتفتح تفتحاً رائعاً كاقحوانة عملاقــة . أوه ، هل يمكن ان يحل تشرين الأول بسرعة ويُسقِط حرارة امي !

وبعد اسبوع تقريبا من ارسالي بطاقة البريد التي كتبتها الى خالي، ارسل طبيبا قديما من طوكيو ليفحص امي ، يدعى ميابكي ، سبق له ان طبب في البلاط .

سبق للدكتور ميابكي ان عرف ابي وهكذا بَدَتْ امي سعيدة برؤيته . وبدا ايضـا ان حركاته الخشنة وكلامه الغليظ ، مما شكل جزءاً من شهرته منذ وقت طويل ، انما تسبب السـرور لأمي . لم يقم بزيارة طبية عادية : فقد استرسل الاثنان ، بالعكس ، في حـديث طلق مرح . وذهبتُ لاصنع حلوى في المطبخ ، وعندما انتهت واصبحت جاهزة للتقديم كان الفحص قد انتهى . كان الطبيب غارقا في مقعد من الخيزران وقد التف جهاز الفحص كالعقد حول عنقه .

— ان امثالي من الناس يكتفون بالحانات التي يجدونها على جوانب الطرقات ليتناولوا فطورهم واقفين : صحنا من العجائن . لايُقدَّم فيها شيء

طيّب وكذلك لاشيء خبيث . ـ هذا ما كان يقوله عندما دخلت الى الغرفة ، وافترضُ انه لفتة نموذجية من حديثها .

كانت امي تتابع حديثه وعلى وجهها علائم الارتياح .

وصحتُ في نفسي « واخيرا هذا ليس بشيء هام » واطلقتُ زفرة ارتياح وانتابتني الشجاعة فجأة فسألتُ :

ـ كيف حالها ؟ قال طبيب القرية ان احدى رئتيها مغشّاة بخرير . هل تعتقد بهذا ايضا ؟

فأجاب الطبيب دون اكتراث :

ـ ماذا تقولين ؟ انها في حالة حسنة تماما !

ـ أوه ، ياله من تخفيف عن النفس ، اليس كذلك يا امي (كلّمتها وانا ابتسم لها من اعماق قلبي) . الطبيب يجدك في حالة ممتازة .

في تلك اللحظة نهضَ الدكتور ميابكي من مقعده وذهب الى الردهة الصينية . كان عنده طبعاً سرّ يفضي به اليّ . فخرجت من الغرفة على رؤوس اصابعي وتبعته .

وعندما وصل الى الحاجز المتحرّك توقف ليقول :

ـ سمعتُ لدى الفحص صوتاً غريباً .

ـ أليس بسبب الرئة المغشّاة .

ـ ليس هذا .

فسألته وقد أخذتُ في البكاء :

ـ التهاب قصبات ؟

ـ شيء آخر :

سل ! كنتُ أأبى أن افكر فيه . كنت واثقة أن لي من القوة مايكفي لمعالجةِ ذاتِ الرئة أو رئة مغشّاة أو التهابَ قصبات . اما السلّ . . . ربما كان هذا قد أصبح متأخراً جدا . وشعرتُ بان ساقيّ ينهاران تحتي .

– هل هو سيء جداً هذا الحرير الغريب الذي تَسْمعُه ؟

واخذتُ انتحب دون أن استطيع التوقف .

– انا اسمعه على اليمين وعلى الشمال . الرئتان مصابتان .

– ولكن امي ماتزال في صحة جيدة ! وشهيّتها للطعام جيدة جدا !

– لافائدة البتة .

– هذا غير صحيح . لايمكن ان يكون هذا صحيحاً . اذا أكلَتْ كثيراً من الزبدة والبيض والحليب ستشفى ، أليس كذلك ؟ مادامت تحتفظ بمقاومتها فستسقط الحرارة ، أليس كذلك ؟

– تستطيع أن تأكل حتى الشبع كل ماتحبّه .

– ولكن ، هذا ماتفعله ! كل يوم تأكل لوحدها خمسة اقراص بندورة .

– البندورة ، هذا جيّد جدا لها .

– إذن كل شيء يسير حسنا ؟ ستشفى ؟

– هذا المرض يمكن ان يكون قاتلا . الافضل ان تعرفي ذلك .

ولأول مرة في حياتي اكتشفتُ وجود جدار اليأس الذي تبنيه آلافُ متناقضاتِ العالم التي تقف القوة البشرية عاجزة امامها .

– وهمستُ وانا ارتجف :

– سنتان ؟ ثلاث سنوات ؟

ــ لا استطيع ان اقول هذا . على كل حال هذا غير قابل للشفاء .

وذهب الدكتور مايكي وهو يتمتم بانه احتجز غرفة في مؤسسة المياه المعدنية في ناغاووكا . ورافقته حتى باب الحديقة . وعدتُ مصروعة تماما الى رأس سرير امي . وعملتُ جهدي لابتسم وانا أقول لها انها لاتعاني شيئاخطيرا، ولكن امي سألتْ :

ــ ماذا قال لك الطبيب ؟

ــ قال ان كل شيء سيكون حسنا لو سقطتْ حرارتك .

ــ ورئتاي ؟

ــ على مايظهر لاشيء هام . حالتُكِ لم تتفاقم . انا واثقة من هذا . وحالما يبرد الطقس قليلا تستعيدين قواكِ .

حاولتُ ان اصدّق اكاذيبي . حاولتُ ان انسى الكلمة المرعبة : « قاتلا » . لم اكن استطيع ان اصدّقبان هذا صحيح . كان لدي الشعور انه اذا ماتت امي فسوف يذوب لحمي مع لحمها . وفكرتُ لنفسي : من الآن فصاعدا سأهمل كل شيء لأعدّ اطعمة لذيذة لأمي . سمك ، حساء ، معلبات ، كبد ، مرق اللحم ، بندورة ، بيض ، حليب ، سلطة ، سأبيع كل ما املك لاشتري ما اغذي به امي .

ذهبت الى الردهة الصينية واخرجتُ الكرسي البحري الى زاوية في الشرفة ، وجلستُ لأرقب وجه أمي . كانت تستريح ، لم يكن وجهها البتة وجه مريضة . انها تنهض كل صباح في نفس الوقت بالضبط ، ثم تذهب الى المغسلة ثم تجلس على حصير الحمام وتسرح شعرها وتتزين وتتبرج بكل دقة ثم تعود

نحو سريرها وتتناول فطورها جالسة فيه، ثم تستريح عليه او تنهض . وفي الصبيحة تقرأ الجريدة او كتاباً . ولا ترتفع حرارتها الا بعد الظهر .

وفكرتُ في نفسي :

« كم تبدو امي في حالة حسنة ! انا متأكدة انها ستبلّ تماما » .

كنتُ قد محوتُ من قلبي تشخيص الدكتور ميايكي :

واستسلم ذهني الى الاسترسال في أحلامه بالتحسّن الذي سيحصل في تشرين الأول عندما تُزهرُ الاقاحي . واستسلمتُ للنوم دون أن أشعر ووجدتني في مشهد طبيعي يراود احيانا احلامي رغم انني لم أره قط . كنتُ على شاطىء بحيرة ، في غابة اعرفها منذ زمن طويل ، وعندما بدا لي المنظر تعرفتُ اليه وانا ارتعش . كنتُ اسير الى جانب غلام لابس بزة يابانية ، في صمت وسكون ، دون ان تبعث خطواتنا اي صوت ، وبدت الطبيعة كلها مغشاة في نوع من الضباب الاخضر . وكان جسر صغير ابيض غارقاً في قعر البحيرة .

وصاح الغلام : « لقـــد غرق الجسر ! لا نستطيع ان نذهب اليوم الى ابعد من هذا . لنتوقف في هذا الفندق . انا واثق اننا سنجد فيه غرفة شاغرة » .

كان فندق ينتصب على شاطىء البحيرة . وكانت جـــدرانه الحجرية غارقة في الضباب الضارب الى الخضرة . وكانت على الباب كلمتا : « فندق سويسرا » محفورتين في الحجر بأحرف من ذهب . وفجأة وانا اقرأ احرف « سوي » فكرتُ بأمي . وتساءلتُ بقلق كيف حالها واذا كانت هي ايضاً في الفندق . واجتزتُ الباب مع الشاب ووجدتني في الباحة . كانت زهور حمراء كبيرة اشبه بالأورطنسيا تلقي سنىً حاداً في الحديقة المضبّبة . عندما كنت صغيرة ،

كان اللحاف المحشو بالزغب مزيّنا برسوم اورطنسيا حمراء ترعبني بشكل فريد.
وقلت في نفسي اما الآن فهناك اورطنسيا حمراء حقيقية .

ـ ألا تشعرين ببرد ؟

ـ كلا . اكاد لا اشعر الا بقليل منه . أذناي بللهما الضباب واشعر بهما باردتين من الداخل . (وضحكتُ ثم سألته) : اتساءل كيف اصبحتْ امي.

فأجاب الغلام بابتسامة حزينة ورؤوفة في نفس الوقت : « اصبحتْ في قبرها » .

وانفلتتْ صرخة من شفتي . كان الأمر كذلك . لم تعد امي معنا. وهل جرتِ الجنازة ؟ لقد انسحق قلبي لدى سماعي نعي امي ، سحقه شعور لا يمكن التعبير عنه شعور بالوَحْدَة وانفتحَتْ عيناى .

كان الليل قد هبط على الشرفة . والسماء تمطر . كان حزن مصطبغ بالاخضر ، كما في حلمي ، يلف كل شيء . وناديت :

ـ امي !

فأجابت بصوت هادىء :

ـ ماذا تفعلين هناك ؟

ونهضت فرحة وهرعتُ نحوها .

ـ كنتُ أنام .

ـ كنتُ اتساءل ماذا حلّ بك. لقد نمتِ قيلولة طويلة، اليس كذلك ؟

كانت تبدو وكأنها تتسلى برؤيتي .

ان روعة امي والفرح بان أجدها حيّة اثارا حماستي لدرجة امتلأت معها عيناي بدموع الامتنان . وسألت بشيء من « الجبْنة » :

– ماهي اوامر سيدتي لتتعشى هذا المساء ؟

– لاتهتمي بهذا . لستُ بحاجة الى شيء . اليوم بلغتْ حرارتي ٣٩,٥ الدرجة .

وانتقلت فجأة من السعادة لاغرق في يأس مطبق . واسودّت الدنيا في عيني فتركت نظري يشرد كيفما اتفق في الغرفة الغارقة في شبه الظل . لقد تمنيتُ الموت .

– انني اتساءل من أين يأتي هذا ؟ ٣٩,٥ الدرجة .

– هذا ليس بشيء . اللحظات الوحيدة التي لا احبّها هي التي تسبق صعود الحرارة . اتألم قليلا من رأسي ، اشعر بالبرد ، عند ذلك ترتفع الحرارة .

كان الظلام يسود في الخارج وقد توقف المطر ولكن الريح ماتزال تنفخ . فاشعلتُ النور وهممتُ بالذهاب الى غرفة الطعام عندما نادتني امي :

– النور يجرح عيني . اطفئيه من فضلك .

فسألتها بعد ان نهضت :

– ولكنك لاتحبين البقاء في الظلمة اليس كذلك ؟

– سيّان عندي . مادمتُ نائمة فعيناي مغمضتان . انا لا اشعر البتة بنفسي منعزلة في الظلام . بل النور هو الذي يزعجني . فلا تنوّري بعد اليوم في هذه الغرفة .

ملأتني كلماتها بالهواجس . ودون ان تنبس ببنت شفة اطفأتُ النور في

غرفة امي . واشعلت مصباحاً في الغرفة المجاورة واندفعتُ نحو غرفة الطعام منهوكةً بصورة لاتحتمل . وعندما جلستُ فيها واكلتُ قديد السومون مع رزٍ بارد ، انهمرتْ الدموع دفقاً من عينيّ .

بدأت الريح لدى هبوط الليل تهب هبوبا اقوى ، وتحوّلت حوالي الساعة التاسعة الى عاصفة حقيقية مع مطر ملطام ، وصفقتْ مع الريح ستائر الشرفة التي سبق ان رفعتُها منذ اول امس . وجلستُ في الغرفة الملاصقة لغرفة امي واخذتُ اقرأ بشغف غريب « مدخل الى الاقتصاد السياسي » بقلم روزا لوكسبورغ . كنتُ قد اخذتُ هذا الكتاب من غرفة ناووجي (بدون إذنه طبعاً) مع « مختارات لينين » و «الثورة الاجتماعية» لكاوتسكي . وكنتُ قد وضعتها على مكتبي . وبينما كانت أمي تمر ذات صباح أمام هذا المكتب ، ذاهبة لتتناول حمامها ، لاحظت المجلدات الثلاث . أخذَتْها الواحدَ بعد الآخر وتفحّصَتْ الفهرس ثم حطتها برفق على المكتب مع تنهدة صغيرة . وألقتْ عليّ اذ ذاك نظرة صغيرة مشحونة بالحزن . كانتْ نظرتها تعبّر عن ألم عميق ولكن دون أقلّ معنى من ازدراء او كره . فالمطالعاتُ المفضّلة عند أمي تتناول هوغو ودوماس (الأب والابن) وموسيه ودوديه ، ولكنني أعلم ان هذه الكتب ذات الاسلوب الروائي الرقيق هي نفسها مشبعة بعبق ثوري .

إن امثال أمي ، الذين يملكون تربية طبيعية – اذا لم يكن جمع هاتين الكلمتين مسرفاً في الغرابة – فهذه الكلمات فريدة وانا اعلم ذلك – يمكن ان يكونوا قادرين على تقبّل الثورة بصورة مدهشة في ايجابيتها كحدث طبيعي تماماً . اما انا فوجدتُ عدة احكام مشكوك بصحتها في كتاب روزا

لوكسمبورغ ، ولكن اكتشافها في المجموع اثار عميق اهتمامي نظراً لنوعيتي بين النساء . يبدو الموضوع الرئيسي في كتابتها ، على وجه العموم ، وكأنه يخص الاقتصاد السياسي ، اما اذا اخذناه هكذا فهو مضجر بصورة لا تُصدّق . انه لا يحتوي شيئاً سوى اعتبارات . من الممكن انني لا افهم شيئاً في الاقتصاد السياسي . ومهما يكن من أمر فالموضوع لا أهمية له في نظري . فعلمٌ يقوم على توكيد الفرضية بأن الكائنات البشرية جشعة وستبقى جشعة الى الأبد هو علم مجردٌ كلياً من كل قيمة في نظر انسان غير جشع (حتى عندما يتعلق الأمر بتوزيع الخيرات او بأية ناحية أخرى من المسألة) وأنا اقرأ الكتاب ، بشَغَفٍ غريب لسبب مختلف تماما هو : الشجاعة القصوى التي تبديها المؤلفةُ في هدم جميع انواع الأفكار المتّفق عليها هدْما لا هوادة فيه . فأنا ، رغم جميع الحجج التي يمكن ان أعارض بهـــا الاخلاق ، عاجزة عن الحؤول دون تراقص هذه الصورة أمام عيني ، صورة زوجة الرجل الذي أحبُّه عندما يعود بسفالة الى بيته . عند ذلك تصبح افكاري هدّامة . ان التهديم مفجع ومثير للشفقة ورائع . الحلم بالهدم « بإعادة البناء » بالتحسين حتى الكمال . بل من الممكن بعد القيام بالهـدم ان لا يأتي وقت التحسين ابداً ، غير انني ، شغفا بالحب ، يجب أن أهدم . عليّ ان اطلق ثورة . لقد وهبت روزا كامل حبّهـــا الماركسية بصورة مفجعة :

كان ذلك في الشتاء منذ اثنتي عشرة سنة خلت .

– أنتِ تشبهين تماما تلك الفتاة اللافقرية (١) المذكورة في « جريدة ساراشينا » والتي لا تفتح فمها ابدا . من المستحيل التكلم معك .

---

(١) اللافقرية اي التي ليس لها عمود فقري .

قالت صديقتي هذا وابتعدت . كنتُ قد رددتُ اليها لتوي كتابا من تأليف لينين دون أن اقرأه .

– أقرأته ؟

آسف أن اقول لك كلا .

كان ذلك يجري فوق جسر تُرى منه الكاتدرائية الروسية الاورثوذكسية في طوكيو .

– لماذا ؟ ماذا منعك من ذلك ؟

كانت صديقتي اطول مني ببوصة واحدة وموهوبة جدا في اللغات . وكانت قبعتها الحمراء تناسبها . كانت فتاة جميلة يقال ان وجهها يشبه وجه « لاجو كندة » .

– أنا اكره لون الغلاف .

انت حقا غريبة الأطوار . ليس هذا هو السبب الحقيقي ، انا متأكدة من هذا . أليس الاصح انني أخيفك .

– أنا لا اخاف منك . أنا لا استطيع أن اتحمل لون الغلاف .

– فهمت .

كانت لهجتها حزينة ، وعندئذٍ شبهتني ببطلة « جريدة ساراشينا » وأعلنت انه لا يمكن التحدث معي .

بقينا هنيهة لاننبس ببنت شفة وعيوننا مغضوضة نحو النهر الشتوي .

– « وداعاً ، اذا وجب أن يكون هذا هو فراقنا النهائي ، وداعاً الى الأبد » .

(بايرون)

وبعد هذه الهمسة تلَتْ بسرعة هذه الابيـــات من شعر بايرون بالانكليزية ، ثم شدّتني برفق بين ذراعيها .

خجلتُ من نفسي فقلتُ لها بصوتٍ خافت : « أطلب منكِ العفو » ثم عدت ادراجي نحو المحطة . والتفتُ فجأة فرأيتُ صديقتي واقفة دون حراك على الجسر وعيناها شاخصتان اليّ .

كانت تلك آخر مرة رأيتها فيها . كنا نذهب لعند استاذ اللغات الاجنبية نفسه ولكننا لم نكن نتابع نفس الدرس .

. . .

مرّتْ اثنتا عشرة سنة ولكن ما يزال عليّ ان اتقدم لأتخطّى مرحلة « جريدة سارافينا » . فماذا استطعتُ أن أفيد من كل هـذا الزمن ؟ لم أشعر بنفسي قط منجذبة نحو الثورة وأنا لم أعرف حتى الحب . فأقدَمُ الأدمغـــة وأحكَمُ الناس قد وصفوا لنا دائماً الثورة والحب كأشد عملين حمقاً ومقتاً . وكنا قبل الحرب وحتى اثناء الحرب مقتنعين بذلك . ومع هذا فنحن منذ الهزيمة لم نعد نؤمن بالادمغة القديمة الحكيمة وتوصلنا في ذلك الى التفكير بان عكس ما تقوله عن الحياة هو ما يشكّل الحقيقة الحقيقية . فالثورة والحب هما فعلا افضل خيرات العالم وألذها . ونحن نكتشف الآن ان الادمغة القديمة الحكيمة انما عصرت علينا ، ازدراءً ، عناقيدَ الكذب الحامضة لأن الثورة والحب هما بالضبط خيرانِ ثمينان . وها كم ما أريد أن أؤمن به ضمنـا : **لقد وُلِدَ الانسان للحب والثورة .**

وفجأة انفتح الباب بهدوء وأطلّت أمي بوجهها الباسم .

– أنتِ ما تزالين واقفة ؟ ألا تشعرين بالنعاس ؟

ونظرتُ الى ساعة مكتبي فاذا هي تشير الى منتصف الليل .

– كلا لم أنعس البتة . قرأتُ كتاباً عن الاشتراكية ، ألقاني في اضطراب وقلق كثير .

– أوه ، أليس عندنا ساكه هنا ؟ الأفضل عندما يكون الانسان في هذه الحالة ان يشرب شيئاً من الساكه قبل النوم . وعند ذلك يستطيع أن ينام جيداً .

كان يبدو انها تمزح ولكن موقفها كان غير قابل للتحديد . وبدَتْ لعوبة لا ينقصها الا القليل حتى تصبح من الموضة الجديدة .

واخيراً جاء تشرين الأول ولكنه لم يجلب أي تغيير فجائي على اوقات الخريف المنورة . بل بالعكس ، تتالت الأيام الحارة والرطبة كما في فصل الأمطار وكانت حرارة أمي تتراوح في كل مساء بين ٣٨ و ٣٩ درجة .

ولاحظت ذات صباح شيئاً يثير القلق : كانت يد امي متورمة . كان ذلك تقريباً في الحين الذي لم تعد فيه أمي تجلس في سريرها الا لتشرب قليلاً من مرق الخضار بعد ان كان لها دائماً ولع خاص بالفطور . ولم تَعُد تستطيع ان تبلع اي طعام فيه ولو قليل من التوابل . في ذلك اليوم بدت تستكره حتى رائحة الحساء الذي اعددتُه بالفُطْر . ورفعَتِ الزبدية حتى شفتيها ولكنها اعادتها الى الطبق دون أن تذوق منها شيئاً . عند ذاك لاحظت باكبر الاندهاش ان يد امي اليمنى كانت متورمة .

– امي ! ما بيدك ؟

وكان وجهها ايضاً يبدو شديد الشحوب متورماً .

ــ هذا لا شيء . هذا الورم البسيط لا يعني شيئاً .

ــ متى حصل لك ؟

ظلّتْ امي صامتة يبدو عليها الشرود . واحسستُ بشوق الى النحيب، الى الصراخ . لم تكن هذه اليد المشوهة الشكل يدَ أمي . انها يد غيرهــا. فلأمي يدان أصغر وأدق . يدان اعرفها جيداً . يدان رقيقتان ناعمتان .يدان ساحرتان . وتساءلتُ هل اختفتْ تلك اليدان الى الابد ؟ لم تكن اليدُ اليسرى منتفخة بنفس المقدار ولكن كان من الايلام المفرط لنفسي ان اواصل النظر الى امي . فاشحتُ عينيّ وحدقت النظر في سلة زهور موضوعة في التوكوتوما[1].

شعرتُ بدموعي تتفجر ونهضتُ فجأة وفزعتُ الى غرفة الطعام غير قادرة على احتمال المزيد . فوجدت فيها تاووجي يأكل بيضة « برشت » . وكان في المرات القليلة التي يأتي فيها الى البيت يقضي ليلته عادة في الشرب عند اوساكي . وكنت في صبيحة اليوم التالي أجده في المطبخ يتناول ، بوجه كئيب ، فطوراً من أربع او خمس بيضات « برشت » ، وهي الطعام الوحيد الذي يقبله . ثم يصعد الى الطابق الأول حيث يقضي النهار فوق سريره أو فيه .

ــ امي يدها متورمة .

قلتُ هذه الكلمات غضيضة الطرفين ولم أتمكّن من متابعة الكلام بل كنتُ ابكي بتشنج .

لم يحر تاووجي جوابا .

---

(١) التوكونوما : مخدع يوضع فيه اثر فني او زهور او ماشابه ــ المترجم .

ورفعت رأسي :

ـ انها النهاية . ألم تلاحظ ؟ عندما يحدث تورم كهذا لا يبقى أمل

و كشفت يدي فوق طرف الطاولة .

واتشح وجه تاووجي ايضاً بامارة حزينة .

ـ لن يطول الزمن . يالمصيبة ! أي أمر محزن سيحدث لنا !

فقلت وانا اعصر يدي :

ـ أريد ان اشفيها ! اريد من كل بد ان اشفيها !

وغرق تاووجي فجأة بدموعه

ـ ألا ترين اذن اننا لا نستطيع دفعا لذلك ؟ ليس من جدوى .

وفرك عينيه بعنف بكلتي قبضتيه المغلقتين .

ذهب تاووجي في ذلك اليوم الى طوكيو ليُعلم خالي واداا بحالة أمي ويأخذ تعليماته للمستقبل وكنت ابكي طوال النهار، كل مرة لا اكون فيها بجانب امي . لم اتوقف عن البكاء حتى وانا ذاهبة لاجلب الحليب وسط ضباب الصباح، حتى وانا اسرح شعري أمام المرآة ، حتى وانا اخضب شفتي .. الايام السعيدة التي قضيتها مع امي ، هذا الحادث او ذاك ، كلها كانت تنتصب امام عيني كأنها لوحات . لم يكن لدموعي حدود ـ ولا جدوى ـ . وعند المساء خرجت الى شرفة الغرفة الصينية بعد هبوط الليل وانتحبت فيها طويلا . كانت النجوم تتلألأ في سماء الخريف وعند قدمي "هر" ، اتى من حيث لا أعلم ، يلتف حول نفسه لا حراك فيه .

كانت يد امي اكثر تورماً في اليوم التالي . ولم تأكل شيئاً . لم تستطع

حتى ان تشربَ كأساً من عصير البرتقال لشدة ما كان حلقها متهيجاً ومؤلما .

– امي ، ماقولك لو اعددتِ القناع الذي كان تاووجي يوصي به ؟ .

حاولتُ تلطيف كلماتي بابتسامة ولكن هذه الكلمات البسيطة انفلتت بلهجة شكوى يخنقها القلق .

– لابد انك مرهقة منهوكة بسبب الجهد الذي تبذلينه كل يوم . أرجو منك ان تستأجري ممرضة .

وفهمتُ انها كانت تقلق على صحتي اكثر مما على صحتها ؛ فزاد ذلك من تعاستي وشقائي .

وبعد الظهر بقليل عاد تاووجي مع الطبيب ميابكي وممرضة . هذا الطبيب الكهل الذي كان في الايام العادية لايتكلم الا مداعبا اندفع هذه المرة ، الى غرفة المريضة كما لو كان غضباً وبدأ بفحصها فوراً . ولما انتهى من ذلك غمغم دون ان يتوجه الى احد بعينه :

– لقد ضَعُفَتْ .

وحقن امي بحقنة « كامفر » . فسألتُهُ في حشرجة :

– اين ستأوي يادكتور ؟

– ايضاً في تاغاووكا . لقد حجزتُ غرفة . لاتقلقي إذن . وبدلا من ان تضطربي من اجل الآخرين ، ينبغي لك ان تفكري بنفسك وان تأكلي كثيراً من كل ماتحبينه ، من كل شيء ومن اي شيء . اذا تغذيتِ شفيتِ . سأعود غداً . انني اترك لكِ ممرضتي . دعيها تساعدكِ .

توجه الطبيب بصوت قويّ الى امي ثم اشار الى تاووجي بغمزة من

عينه . وتقدم ناووجي ليرافقه حتى الباب . وعندما عاد بعد ذلك ببضع دقائق كانت سحنته تنم عـــن انه يمسك بدموعه . وخرجنا من الغرفة بهدوء لندخل الى غرفة الطعام .

« فقدناها » اليس كذلك ؟

وغضّن ناووجي شفتيه كما ليبتسم .

ـ ليس هذا غريباً . يبدو ان ضعفها قد تزايد ايضاً . قال الطبيب إن النهاية يمكن ان تحدث في يوم او يومين .

وامتلأت عيناه بالدموع .

وقلتُ متمالكةً نفسي بصورة تدهش :

ـ انا اتساءل اذا لم يكن يتوجّبُ علينا ان نُبْرِقَ الى جميع من. . . .

ـ لقد تحدّثتُ في الأمر مع خالي وادا ولكنه قال لي اننا في الوضع الذي نحن فيه لا نستطيع أن نجمع أناساً كثيرين . فحتى لو فرضنا ان الناس يأتون ، فالبيت صغير جداً بحيث لا نستطيع أن ندعوهم جميعاً للنزول فيه ، وليس في الجوار فنادق ملائمة . ولا يمكن حتى حجز غرفتين او ثلاثة في دار المياه المعدنية في تاغاووكا . أو بتعبير آخر ، أصبحنا فقراء وليست لدينا الوسائل لندعو جميع « السادات العظام » من عائلتنا . يمكن الافتراض أن الخال وادا سيحضر على الفور ، ولكنه كان دائماً من البخل بحيث لا نستطيع الاعتماد عليه ليُسعفنا . فحتى في الليلة الماضية ، وفي هذه الظروف ، نسي مرض أمي نسياناً كافياً ليعظني ويوبخني توبيخاً قاسياً . لم يحدث قطّ طوال تاريخ العـــالم ، لم يحدث قطّ ان رأى انسان النور بعد ان وبّخه رجل في مثل هذا البخل . هذا

كل الفرق بينه وبيننا وبأولى حجة بينه وبين أمي . انه يسبب لي المرض .

ـ لكن في الحقيقة سنرتبط به وأنت بشكل خاص .

ـ ولا بأي شكل . أفضل ان اعيش من التسول . أما انتِ ، انت يا اختي العزيزة يجب عليك ان تعيشي من عطفه و كَرَمِه .

ـ أنا ... (واتتني الدموع) . أنا اعرف اين اذهب .

ـ زواج ؟ هل هذا مقرر ؟

ـ كلاّ .

ـ كيف ستكسبين رزقك ؟ ستشتغلين ؟ اسكتي !

اكسب رزقي ... كلا ... سأكون ثدية .

ـ ماذا ؟

ونظر اليّ ناووجي نظرةً مشدوهة .

وفي هذه اللحظة بالضبط نادت الممرضة :

ـ يبدو ان أمّكِ تطلبكِ .

فهرعتُ الى غرفة المريضة وجلستُ الى جانب سريرها . وسألتها منحنية فوق رأسها :

ـ ماذا ؟

لزمت امي الصمت، ولكنني استطيع التأكيد انها كانت تريد ان تكلمني

ـ ماء ؟

وهزت رأسها بضعف . وبعد هنيهة قالت بصوت ضعيف منهوك :

ـ رأيتُ حلما .

– من اي نوع هو هذا الحلم ؟

– عن حيّة .

فارتجفت .

– اظن انك ستجدين حيّة انثى مخططة بالأحمر على العتبة امام الشرفة . هل تريدين ان تذهبي وتري ؟

فنهضت وانا احسّ ببرد يجلّدني كلّي . ذهبتُ الى الشرفة ونظرتُ من خلال الباب الزجاجي . كانت على العتبة حية ممددة بطولها كله في شمس الخريف ، مما سبّب لي دوّارا .

انا اعرفك . لقد كبرت قليلا وشخت منذ المرّة الماضية التي رأيتك فيها ، انك الحية التي احرقتُ بيوضها . لقد نالني انتقامك . فانسلي فوراً .

عَبَرَ هذا الرجاء ذهني ، بينما بقيتُ جامدة في مكاني وعيناي مسمّرتان على الحية التي لم يكن يبدو عليها انها تتنفّس . ولسبب غير واضح ، لم أرد أن ترى الممرضة الحية . فضربتُ برجلي . ثم صحت بصوت اقوى مما يجب :

– كلا ، ليس ثمة حيّة . امّي ، ان حلمك لا ينطبق على شيء .

ولما نظرتُ ثانية الى العتبة رأيتُ الحية وقد أخذت تتحرك وتبتعد ببطء .

لم يبقَ لي ، اذن ، ان احتفظ بأي أمل ، مطلقاً . لقد بدأ الاستسلام يذرّ في قلبي حالما رأيتُ الحيّة . وكنت قد سمعتُ قولاً بان حية صغيرة سوداء كانت قرب سرير والدي حين وفاته . وانا نفسي رأيتُ على كل شجرة من اشجار الحديقة حية تلتف حولها .

وبدا ان امي فقدت القدرة على الجلوس في سريرها وظلت في نعاس وخدر مستمرين . فعهدت بها كلياً لعناية الممرضة ، أما من جهة الاطعمة فلم تعد تستطيع تقريباً أن تمر في حلق امي . وعندما رأيت الحية ذاب توتر قلبي في شعور قريب من الشعور بالسعادة ، بطمأنينة الروح ، اذا صح القول ، لدى التفكير بانني قد بلغت اعمق قاع اليأس . واقتصر تفكري على البقاء مع امي بقدر ما استطيع .

قضيت طوال نهار اليوم التالي في الحياكة قرب سريرها . انني احيك واخيط باسرع بكثير من الكثير من النساء ولكن دون الحصول على نتائج جيدة . وكانت امي تدلني دائماً على الأماكن التي صنعتها بصورة سيئة . في ذلك اليوم لم تكن بي رغبة في الحياكة ولكنني اخرجت كيس شغلي ، واخذت احيك باجتهاد يبين انني لا افكر بشيء آخر في العالم ، انقاذاً للظاهر ، حتى لا تجد امي غرابة في بقائي النهار كله الى جانب سريرها .

وكانت امي تنظر شاخصة الى يدي بصورة ثابتة .

— انت تشتغلين جرابين (سوكيت) لك ، أليس كذلك ؟ لا تنسي انــــه يجب ان تضيفي ثماني « طعنات » ، والا فسيكونان ضيقين جداً بحيث لا تستطيعين لبسها .

لم اكن اتوصل في حداثتي الى حياكة جيدة رغم كل المساعدة التي كانت تسديها الي امي ، والآن اكتشفت انني ما ازال قليلة المهارة كالسابق لشدة ما كانت تمزقني هذه الفكرة وهي ان امي كانت ترشدني للمرة الاخيرة . ثم حالت الدموع بيني وبين شغلي فلم اعد اراه .

لم تكن امي تبدو البتة مريضة في تمددها على تلك الحال . لم تكن قد أكلتْ شيئاً منذ الصباح ولم استطع لها شيئاً سوى تبليل شفتيها عدة مرات بقطعة شاش مبللة بالشاي . ومع ذلك كانت حاضرة الذهن تماماً وتحدثني من حين لاخر بلهجة هادئة :

– يبدو لي انني اتذكر انني رأيتُ صورة الأمبرطور في الجريـدة . احب ان ارى هذه الصوره مرة اخرى .

ونشرتُ صفحة الجريدة فوق وجه امي .

– لقد شاخ .

– كلا انها صورة سيئة . فقد كان يبدو عليه في الصُوَرِ المنشورة في المرة السابقة انه حقا شابٌ وسعيد . والارجح انه في هذهالآونة اسعد منه في أي وقت مضى .

– لماذا ؟

– اطلقوا سراحه هو ايضا .

فابتسمَتْ امي ابتسامة حزينة وقالت :

– حتى عندما اريد ان ابـكي لم تعد الدموع تأتيني .

وتساءلتُ فجأة ماذا كان مستحيلا ان تسعدَ امي حاليا ، ما اذا كان الشعور بالسعادة لايصح ان يُقارَنَ برؤية قشيرات من الذهب تلمع لمعانا ضعيفا في قعر جدول الحزن . اذا كان الشعور برؤية هذا القبس الشاحب الغريب بعد ان نتجاوز حدود الشقاء – اذا كان هذا يصح ان يسمّى شعوراً بسعادة، اذن فالامبراطور ، وامي ، وحتى انا نفسي ، يمكن ان يُقال اننا سعداء .

صبيحةٌ خريفية هادئة . حديقةُ خريفٍ حلو ، حديقةٌ مغمورة بالشمس .تركتُ شغلي ونظرتُ الى البحر المتلألىء في الافق البعيد .وقُلْتُ :

ــ امي ، لقد جهلتُ العالم تماما حتى الآن .

كنت ارغب في ان اقول اكثر من هــــذا بكثير ، غير انني خفتُ أن تسمعني الممرضة التي كانت تهيء حقنة بالوريد في احدى زوايا الغرفـــة فتوقفتُ فجأة .

وتعلقت امي بكلمتي فقالت مع ابتسامة شاحبة :

ــ تقولين حتى الآن ؟ فهل تعنين انك الآن تفهمين العالم ؟

واصطبغ وجهي ، دون ماسبب ، بلون الارجوان :

ــ أنا لا افهم العالم .

وأدارت أمي رأسها وقالت بصوت خفيض كأنها تكلم نفسها :

ــ ولا انا افهمه . انني اتساءل ما اذا كان ثمّةَ من يفهمه . اننا جميعاً نظل اطفالا مهما بلغنا من العمر . اننا لا نفهم شيئاً .

عليّ أن أواصل الحياة . ورغم ان هــــذا طفوليّ من جانبي ، فأنا لا أستطيع ان أعيش اذا كان عملي يقتصر على الخضوع عليّ من الآن فصاعداً ان اصارع العالم . وفكّرتُ بان امي قد تكون الاخيرة بين من يستطيعون اختتام حياتهم بشكل حزين وجميل دون صراع مع أي كان . دون أن يكرهوا أو يخونوا احدا . لن يكون في العالم الذي سيأتي مكان لمخلوقات من هذا النوع . ان المحتضرين جميلين ، اما الحياة ، اما البقاء بعدهم ــ فهذا يبدو لي ، الى حد ما ، بشعاً ودموياً . وتدحرجتُ على أرض الغرفة وحاولتُ ان

أفشّلَ نفسي في وضعية أفعى حبلى تحفر جحراً كما تذكرتُها . غير انّهُ كان ثمة شيء لا استطيع ان ارضى به . ليُسمّوا هذا ضعفاً عقليـــاً من جانبي ، اذا شاؤوا ، ينبغي ان ابقى على قيد الحياة وان اناضل مع العالم لأرضي رغباتي . منذ ان اتضح ان امي ستموت قريباً ، اخذت عقليتي الحالمة والخيـالية تذبل تدريجياً ، وكنتُ اشعر بانني أصبحُ شبيهة بآلة حاسبة مجردة من اية مبادىء .

بينما كنتُ جالسة بعيد الظهر بالقرب من امي ابلل لها شفتيهـــا ، توقفتْ سيارة امام الباب . لقد وصل خالي وادا وزوجته من طوكيو . وذهب خالي رأساً الى غرفة المريضة وجلس الى جانب رأسها دون ان ينطق بكلمة . فأخفَتْ بمنديل أسفلَ وجهها دون ان تفارق عيناها وَجْهَ الخال ، وتشنّج وجهها كما لتبكي ولكنها لم تسكب دمعة واحدة . وهكذا جعلتني افكر بدمية . ثم سألتني بعد برهة وهي تنظر الي :

— أين ناووجي ؟

صعدتُ الى الطابق الاول . كان ناووجي يقرأ مجلةً وهو متمددٌ على اريكة . فقلت :

أمي تطلبُك .

ماذا ! مشهد مفجع آخر ؟ انتُم ، انتُم اقوياء ، اعصابكم متينة ، انتم تحسون احساساً ضعيفاً بالاشياء ، اما نحن فنتألم حقاً ؛ في الحقيقة ان الروح متقد ولكن الجسم ضعيف — ليست لدينا الطاقةُ مطلقاً للبقاء قرب ماما .

ومع استمراره في الكلام على هذا النحو ، لبس سترته ونزل معي .

وحالما جلسنا جنباً الى جنب قرب أمي اخْرَجَتْ يدها فجـأة من

الأغطية ومدّتْ اصبعها ، في صمت ، نحو ناووجي أولاً ثم نحوي . ثم التفتَت نحو خالي وضمّتْ يديها في حركة توسّل :

فهز خالي رأسه بحرارة .

ـ نعم ، فهمتُ ، فهمت .

وأغمَضَتْ امي عينيها قليلا كما لو ان هذه الكلمات ادخلت على قلبها العزاء . ثم دسّتْ يديها من جديد تحت اغطيتها .

وبكيتُ واخذ ناووجي ينتحبُ خافض العينين .

في تلك اللحظة وصل الدكتور ميايكي وحقنها على الفور حقنة اخرى . لابد ان امي فكّرتْ منذ استطاعتْ ان ترى خالي انــه لم يبق لها مبررٌ لتحيا . فقالت :

ـ دكتور ، ارجوك ، خفف عني بسرعة .

ونظر كلّ من الطبيب القديم وخالي الى الآخر في صمْت . لم ينطقا ولكن دمعات لمَعَتْ في عيونها .

ذهبتُ الى غرفة الطعام حيث اعددتُ وجبة معكرونة على الطريقة التي يفضلها خالي واخذت منها الى الغرفة الصينية بما يكفي لاربعة اشخاص : خالي والطبيب وناووجي وزوجة خالي . ولما كنت أرغبُ في ان أُرِيَ أمي « الصندويشات » التي اختص بصنعها فندق مارونوشي والتي احضرها خالي معه بصفة هدية ، فقد وضعتُها قُرْبَ مخدّتها . فتَمْتَمَتْ امي :

ـ تظلّين دائما مشغولة .

تحادثنا حينا في الردهة الصينية . كان خالي وزوجته شغل في طوكيو في نفس المساء على مايظهر إذ اضطرا للذهاب . ومدّ اليّ خالي غلافا كان يحتوي مالا . واعلن انها سيعودان مع الدكتور ميايكي الذي اعطى من جهته أوامره الى الممرضة بصدد المعالجة الواجب اتباعها . لقد توافقوا على التكهن بان امي ستبقى اربعة اوخمسة ايام بفضل الحقن . كانت ماتزال واعيـة تماما ولم يكن قلبها مصابا بصورة خطيرة . وصعدوا جميعـاً الى السيارة ليعودوا الى طوكيو .

وبعدان رافقتُ كلاً منهم حتى الباب عدتُ الى غرفة امي . فابتسمت لي بالطريقة الفريدة في حنانها والتي خصتني بها دائماً . وقالتْ بصوت لم يكن سوى زفرة :

ـ لا بدّ أنك تعبتِ بشكل مريع .

كان وجهها مفعما بالحيوية لدرجة بدا معها مشرقا تقريباً . وفكرت في نفسي انها لا بدّ قد سَعِدَتْ برؤية خالي .

كانت تلك الكلمات آخر ما تلفظتْ به أمي .

وبعد ذلك بثلاث ساعات تقريباً فارقت الحياة ... في الغسق الخريفي الهادىء بينما كانت الممرضة تجس نبضها و كنا نسهر عليها ، نحن ولداها ، ناووجي وأنا ... امي اللذيذة الطيبة التي كانت آخر سيدة جليلة في اليابان .

لم يؤثـّر الموتُ على وجهها تقريبا . عندما توفي ابي تغيّرتْ ملامحه فورا ، أما ملامح أمي فبقيتْ تماما كما كانت ابّان الحياة . لم يتغير شيء سوى

ان تَنَفُّسها توقّفَ . وقد حدثَ ذلك بهدوء بالغ حتى اننا لم نعلم بالضبط متى توقفتْ عن التنفّس . كان وجهها بالامس قد فقدَ كل تورم واصبح خداها الآن ناعمين كالشمع . كانت شفتاها الشاحبتان منثنيتين قليلا كما لو كانت تبتسم . كان لامي من السحر وهي ميتة اكثر مما كان لها حتى وهي حية . وعَبَرَتْ ذهني فكرةٌ : إنها تذكّر بالعذراء الباكية في صورة الام الحزينة .

- ٦ -

بدأ النضال .

لايمكن لي أن أظل غارقة في أحزاني الى مالانهاية . ثمّة شيء لابد لي من النضال في سبيله . علم أخلاقي جديد . كـلّا . ان مجرد استعمال هذه الكلمة رياء . الحب . هذا ولا شيء سواه . فأنا لاأستطيع الاستمرار في الحياة اذا لم أتشبّث بالحب بكل قواي ، تماماً كما كان على روزا لوكسمبورغ أن تستند الى مبادئها الجديدة في الاقتصاد السياسي لتستمر في الحياة . ان عبارات التعليم الذي ألقاه يسوع الى حوارييه الاثني عشر وهو يرسلهم ليكرزوا في الآفاق بنفاق ورياء الكتبة والفريسيين ومن كانوا يمسكون بزمام السلطة ، ولكي يعلنوا للانسانية كلها ، دون أقل تردّد ، محبة الله الحقيقية ، ان كلمات هـذا الارشاد الى تلاميذ يسوع ليست بعيدة كلياً عن الانطباق على حالتي . قال :

« لاتحملوا معكم ذهباً ولا فضة ولا مالاً في أنطقتكم . لاتضعوا في أكياسكم ثوبين داخليين ولا نعالاً للتبديل ولا عصياً . انتبهوا ! انا ارسلكم بعيداً كخراف بين قطيع من الذئاب ، فكونوا اذن حكماء كالحيّات وأطهاراً كالحمام . ولا تخافوا الذين يقتلون الجسد ولكنهم لايستطيعون قتل الروح ، بل خافوا من يقدر على اهلاك الروح والجسد في جهنّم . لاتظنوا أنني أتيت لألقي سلاماً على الارض ، أنا لم آت لألقي سلاماً بل سيفاً . ذلك انني أتيت لأقيم الانسان

ضد أبيه والابنة ضد أمّها والكنّة ضد حماتها . وسيكون أعداء الانسان أهل بيته بالذات . من أحب أباه أو أمه أكثر مني فهو لايستحقني ، ومن أحب ابناً أو ابنة أكثر مني فهو لايستحقني . ومن لايحمل صليبه ويتبعني لايستحقني . من وجد نفسه أضاعها ومن أضاع نفسه لأجلي وجدها ».

بدأ النضال .

لو وجب عليّ باسم الحب أن أقسم يمين الطاعة دون اخلال لمبادىء يسوع هذه ، أن أقسم باطاعتها حرفيّاً ، فأنا أتساءل هل يمكن ليسوع أن يدينني . فلماذا يكون الحب الجسدي شرّاً والحب الروحي خيراً ؟ أنا لاأفهم. أنا لاأجد بدّاً من الاعتقاد بأنهما متساويان . أحب أن أفاخر بكوني امرأة قادرة على اهلاك جسدها وروحها في جهنّم باسم الحب أو باسم عاطفة قد لاتفهمها ، أو باسم الحزن الذي يولّدانه .

رتب خالي احراق الجثة في ايزو والجنازة في طوكيو .

وبدأتُ وناووجي ، نعيش في « الدارة » في علاقات من السوء بحيث لا نقول كلمة واحدة حتى لو وجدنا انفسنا وحدنا وجهاً لوجه . باع ناووجي جميع حلي أمي قائلاً ان الثمن « رأس مال » لمشروع مؤسسة النشر . وكان بعد ان ينهكَ نفسه بالشرب في طوكيو يعود مترنحاً بوجه شاحب شحوب الموت كمريض في المرحلة الأخيرة من مرض رهيب . وذات يوم عاد بعد الظهر مع فتاة كان يبدو عليها انها راقصة . وزاد ذلك من صعوبة حياتنا فاقترحتُ : « هل من المناسب ان اذهب الى طوكيو اليوم ؟ أحب ان ازور صديقة لم أرها

منــــذ سنين . بودي ان أمضي عندها ليلتين او ثلاث . ولن يزعجك ان تدير شؤون البيت أليس كذلك ؟ تستطيع ان تدع هذه الفتاة تطبخ لك طعامك».

ولم أتردد لحظة في الافادة من ضعف ناووجي . وأبديتُ آنذاك ، بشكل طبيعي تماما ، حكمة الحية ، فوضعت ادوات زينتي وبعض المؤونة في حقيبة ، وذهبت الى طوكيو بغية ان أرى حبيبي .

وكنت قد طرحت سؤالا بدون اكتراث ، أجابني عليه ناووجي بان مسكن السيد اويهارا الجديد يقع على بعد حوالي عشرين دقيقة سيراً على الاقدام من مخرج محطة اوجيكوبو الشمالي على خط ضواحي طوكيو . كانت ريــــح خريفية عاتية تهب في ذلك اليوم وكان الليل قد ارخى سدوله عندما خرجتُ من محطة اوجيكوبو . واستوقفتُ ماراً لأسأله اين يسكن السيد اويهارا ، ولكنني ، رغم هذا الاستعلام تعثرت عبثاً مدة ساعة تقريبا في الأزقة المظلمة . وشعرتُ بنفسي ضائعة لدرجة سحّتْ معها دموعي . وفجأة عثرتُ بحجر وانقطع سير نعلي . وبينما انا اقف تائهة شاردة متسائلة ماذا اعمل ، لاحظت على احد بيوت الصف الواقع على يميني ، كتابة بارزة ضاربة الى البياض وسط الظلمة . وتأكدت بالغريزة انها تحمل اسم اويهارا . فمشيتُ بعرج خفيف حتى المدخل حافية القدم . ونظرتُ الى الكتابة من قرب . وظننتُ تماما انني اقرأ : اويهارا جيرو ، ولكن داخل البيت كان مظلما .

بقيتُ دون حراك حينا آخر مرتبكة لا اعلم ماذا اعمل . وأخيرا

وبنوع من اليأس القاسي استندت الى شبّاك باب المدخل كما لو كنت على وشك الخور والانهيار عليه . وقلتُ وانا افرك بانامل كلتى يديّ شبّاك الباب وهمستُ :

– المعذرة ، السيد اويهارا !

وأجابني صوت ولكنه صوت امرأة .

وانفتح الباب من الداخل وظهرتْ في الممر المظلم امرأة دقيقة الوجه تكبرني بثلاث أو أربع سنوات ، متطيّبة بعطر فات زمانه . وسألتْ وسط اشراقة بسمة :

– من هذا من فضلك ؟

ولم أتبيّن في لهجتها خبثاً ولا منعاً ولا مقاومة :

– أوه ، اعذريني . أنا ...

ولكنني أضعتُ فرصة ذكر اسمي . فقد تجد حتّي معيباً . وسألتُ ، خجولةً بل ذليلة تقريباً :

– هل السيد اويهارا في بيته ؟

– كلا . (وحدّقتْ في وجهي بصورة تنمّ عن اشفاق ثم أضافتْ :) ولكنه يذهب عادة ...

– بعيداً من هنا ؟

– كلا . (ووضعتْ يدا على فمها كما لو كانت تعبث) . الى اوجيكوبو . اذا ذهبتِ الى مطعم شيرايشي ، مقابل المحطة ، فسوف تجدين اناساً يعلمون غالبا اين هو .

كدت اقفز من الفرح .

ـ أوه ، ماذا حدث لنعلك ؟

ـ واجتذبتني الى الممر . فدخلته وجلستُ على الدرجة . فأعطتني السيدة سيراً من الجلد استخدمته مكانَ السير المقطوع . وبينما كنتُ أنشغل في اصلاح حذائي أشعلَتْ شمعة وأتت بها الى الممر .

ـ آسف ، المصباحان الكهربائيان عندنا محروقان . هـــذا سخيف ، أليس كذلك ؟ ان المصابيــح أصبحت غالية ، ثم انها تحترق بسرعـة . لو كان زوجي هنا لاستطعتُ أن أرسله ليشتري واحداً . ولكنه غائب منـذ ليلتين ، ولهذا نمتُ وابنتي في ساعة مبكّرة دون سنتيم واحد !

كانت تكلمني بلهجة طبيعية تماماً . وكانت تقف وراءها فتاةٌ صغـيرة لطيفة ظريفة بين الثانية والثالثة عشرة ، لها عينان نجلاوان يدل مضمونهما انها لم تتعوّد رؤية الناس . حقاً انا لم انظر اليهما كعدوّتين ، ومع ذلك كان باستطاعتي ان أُقسم ان هذه المرأة وهذه الصغيرة ستفكّران بي يوماً تفكيراً عدائياً وتكرهانني . ولدى هذه الفكرة شعرتُ بان حبّي قد تجمّد فجـــأة كالجليد . وانتهيتُ من تغيير سير حذائي ونهضتُ وضربتُ كفّاً بكفٍ لأزيل عنها الغبار . وصعد في كياني عندئذ شعور مُسبق بالبؤس والشقاء ، شعور شديد لا يحتمل . ورأيتني ادخل باندفـــاع الى الردهة المظلمة لأشدّ يد السيدة اويـــارا في يديّ وابكي وايّاها. ارتعشتُ بعنف لدى هذه الفكرة ولكنني استبعدتُها بمقت مفاجيء وانا اتصور الدور المنافق ، الكريه بصورة لايمكن التعبير عنها والذي كنت مزمعة ان اضطلع به فيما بعد . وقلت :

ــ انا ممنونة منك جداً ، ثم انحنيتُ بأدب زائد وخرجت .

كانت ريح قارسة تهب . الصراع يبدأ . انا أحبه ، انا أصبو الى رؤياه . انا احبه حقاً ، نعم انا حقاً في حاجة اليه . احبه الى درجة لا استطيع التغلب عليها . نعم ، انني ادرك تماما ان زوجته تتمتع بطيبة نادرة وان ابنته لطيفة محببة ، اما اذا وقفتُ امام الله ليحاسبني فلن اشعر فعلًا انني مذنبة . فالانسان ولد للحب والثورة . وليس لدى الله مبرر ليعاقبني ، انا لستُ داعرة مطلقا . انا أحبّه حقا وانا مستعدة لأن الحق به . وقد اقضي ليلتين او ثلاث ليال في الحقول لو اقتضى الامر . نعم سأفعل ذلك .

لم أجد اية مشقّة للعثور على مطعم شيرايشي مقابل المحطة . لم يكن فيه .

ــ إنه في آزاغايا ، انا متأكد من ذلك . اذهبي على خط مستقيم امامك ابتداء من المخرج الشمالي من محطة آزاغايا ، يعني حوالي مئة وخمسين متراً على ما أظن . هناك تجدين « دكان خرضة » ، ومن هناك تابعي السير بخطّ مستقيم ، خمسين متراً تقريباً وترين مطعما صغيراً يُدعى « الصفصافة » . ان للسيد اويهارا علاقة مع احدى الخادمات وهو يقضي كل وقته هنـــاك . غير معقول ، أليس كذلك ؟

ذهبتُ اذن الى المحطة وأخذتُ تذكرة وصعدتُ في قطار الى طوكيو . ونزلتُ منـــه في آزاغايا وسرتُ من المخرج الشمالي في خط مستقيم حتى « الصفصافة » فوجدتُه مقفراً تماماً .

ــ لقد خرج لتوّه مع اناس كثيرين . قالوا انهم ذاهبون لقضاء الليل بالشرب في « الشيدوري » في نيشيوجي .

كانت الخادمة أصغر مني سناً ، واثقة من نفسها ، متأنقة ، لطيفة . وتساءلتُ عما اذا كانت هي التي له بها علاقة .

— « الشيدوري »؟ في أيّ حي من نيشيوجي يقع ؟

خمدَتْ شجاعتي وأصبحتُ على وشك البكاء . وشككت فجأة فيما اذا كنتُ لم أصبح مجنونة تماماً .

— لا أعلم بالضبط ، ولكنني أعتقد أنه قرب المحطة ، على الشمال . على كل حال ، أنا متأكدة انك ستجدينه اذا سألتِ مخفر الشرطة . غير أنه ليس رجلا يكتفي بحانة واحدة ويمكن جداً أن يتوقف في مكان ما على طريق « الشيدوري » .

— سأذهب الى الشيدورى . سأرى جيداً . وداعاً ، الى اللقاء .

القطار من جديد ، ولكن في الاتجاه المعاكس هذه المرة . خرجت منه في نيشيوجي وهمتُ على وجهي في الريح القارسة العاصفة حتى وجدتُ مخفر الشرطة . وهناك دلّوني على اتجاه الشيدورى واندفعتُ في الشوارع المظلمة راكضةً تقريباً . ووقع نظري على مصباح الشيدورى الأزرق فدفعتُ الباب دون تردد . وفي غرفة صغيرة تبلغ مساحتها ٦ حصيرات [1] تقريباً ، عابقة بالدخان ، كان عشرة أشخاص تقريباً جالسين الى طاولة مستطيلة يقومون بصخب شديد وهم يتناولون نوبة عامرة من المسكرات . وكان بينهم ثلاث بنات أصغر مني سناً يشربنَ ويدخّنَّ كالرجال .

---

(١) مر معنا أن الحصيرة قياس مساحة بطول ١٨٠ سم وعرض ٩٠ سم . فتكون مساحة الغرفة دون العشرة أمتار مربعة . (المترجم)

وتقدمتُ وجلستُ في الغرفة بعيني فرأيته . ظننتني أحلم . كان شخصاً آخر . ستّ سنوات . لقد أصبح مخلوقاً مختلفاً تماماً .

هذا الرجل ، هل هو قوس قزحي ، M. C. (١) مبور حياتي ؟ ستّ سنوات . كان شعره لا يقل تشعثا عما كان ولكنه مبعثرٌ بلون قاتم محزن . كان وجهه متورماً شديد الشحوب وكانت عيناه محاطتين بالاحمر القاني . كانت عدة من اسنانه الامامية ساقطة وشفتاه تتحركان كأنه يتمتم باستمرار . لقد جعلني افكر بقرد عجوز وقد أقعى وتكوم في زاوية حجرة .

ولحظتْني احدى البنات ، وبغمزة من عينيها ، اعلَمَتْ السيد اوبهارا بوجودي . فمدّ عنقه الطويل نحوى وهو مايزال جالساً واشار اليّ بحركة من ذقنه لاقترب دون ان يفيق من خدَرِه . أما سائر اعضاء الشلة فواصلوا ضجيجهم الصاخب دون أن يبدو أنهم لاحظوا حضوري ، آخذين في الوقت نفسه بالتلاصق فيما بينهم ليوسّعوا لي مكانا بقرب السيد اوبهارا .

جلستُ دون أن انبس بكلمة . وملأ السيد اوبهار كأسي بالساكه حتى الجمام ثم ملأ كأسه ودندن بصوت مبحوح :

- بصحتكِ !

وتلامس كأسانا برفق أصدر قعقعة صغيرة حزينة . وبدأ احدهم ينشد « يامقصلة ، يامقصلة ، شور وشو روشو » واستأنف آخر الغناء . وقرعوا كؤوسهم بصخب وازدردوا بلعة جديدة من الساكه . وتناوبوا على ترديد هذا النشيد الغبي جماعةً بعد جماعة ، ثم تقارعوا كؤوسهم

---

(١) انظر سابقا المقصود بـ M. C. وهي تقصد الالتباس بين تشيخوفي وولدي وكوميدي وهي على التوالي My chekhov. My child. My Comédien . (المترجم) .

وافرغوها . كانت هـذه السخافة الغبية الموزونة تبدو وكأنها تمنحهم القوّة الضرورية ليدفعوا الغَوْل في حلوقهم .

وعندما كان أحدهم يقول : « إذن ، اعذروني » ويتهيأ للذهاب مترنحا، كان قادم جـديد يصلُ في استرخاء ولا مبالاة فيوجه تحية قصيرة الى السيد اوبهارا وينبدس بين الشاربين الجالسين .

ـــ سيد اوبهارا ، انت تعلم ... « أوحـه » [1] أنّ بالقرب من هنا حانة تسمى : آه آه آه . كيف يجب لفظ هذا الاسم :أه ـ أه ـ أه أو آه آه؟

كان الذي انحنى ليطرح هذا السؤال هو الممثل فوجيتا الذي تذكّرته جيدا جدا أنني رأيته في المسرح .

واجابه السيد اوبهارا :

ـ انه آهاه ـ آه . ينبغي أن تلفظ آهاه ـــ آه ، الغَوْل ليس رخيصـاً في الشيدورى .

فقالت احدى البنات :

ـــ أنت لا تتكلم إلا عن المال .

وقال شاب :

ـ بلعتان بصن [2] ، هل هذا غال أم رخيص .

وقال رجل آخر :

---

(١) المقصود صوت السعال الخشن او التنخم . (المترجم) .

(٢) عملة يابانية صغيرة ـ (المترجم)

– قيل في التوراة انه ينبغي الدفع حتى آخر سنتيم . رجل ربح خمس وزنات من الفضة وآخر ربح وزنتين وثالث وزنة واحدة ... ياله من مثل رهيب لا ينتهي ! لقد كانت حسابات المسيح مفصلة بشكل يوجب العجب .

وقال رجل آخر :

– وفوق هذا كان شرّيباً . ومن المسلّي عدد الامثال عن الخمر في التوراة . التوراة تنتقد الناس الذين يحبّون الخمر ولكنكم تلاحظون أنهالاتقول كلمة واحدة عن الانسان الذي يشرب الخمر ، الا من يُصبح مجنوناً به . هذا يَدُل على أن المسيح كان شرّيباً حقاً . أنا أراهن أنه كان بإمكانه أن يشرب هذين اللترين .

– كفى ، كفى . أنتم الذين تخافون الفضيلة ، تحاولون أن تتخذوا يسوع عذراً ... لنشربْ ! يامقصلة ، يامقصلة ، شورو شوروشو .

ودقّ السيد اويهارا كأسه بعنف على كأس البنت الصغرى والأجمَل، ثم ازدرد بلعة عميقة . وسال الساكه من زاويتي فمه على ذقنه فنشّفها براحة يده بطريقة زقاقية . ثم أطلق خمس أو ست عطسات هائلات .

وقمتُ برزانة ودخلتُ الى الغرفة المجاورة . وسألتُ صاحبة الخانة عن المغسلة ، وهي امرأة شاحبة نحيلة تبدو كأنها مريضة . وبينا كنت أجتاز الغرفة ثانية لأعود الى الجماعة رأيت فيها « شي »، البنت الجميلة التي لفتت نظري، ويظهر أنها أتتْ الى هنا لتَنْتَظِرَني . وسألَتْني بابتسامة تنمّ عن روح صداقة :

– ألستِ جائعة قليلاً ؟

– بلى ، ولكنني جلبتُ معي قطعة خبز .

وقالت المرأة الممروضة وهي تنحني بِكَلَلٍ فوق مشِعّ التدفئة :

— ليس لدينا شيء كثير نقدّمه لكِ ولكن اقبليها . تعالي كلي قطعة . اذا بقيت مع هؤلاء السكيرين فلن تأكلي شيئاً طول الليل . اجلسي اذن هناك قرب « شي » .

وصاح رجل في الغرفة المجاورة .

— هيه ، كينو ! ما عاد عندنا ساكه !

فردت البنت المدعوة كينو :

— «أنا قادمة» وهي تخرج من المطبخ حاملة عشر زجاجات من الساكه على طبق .

— دقيقة . (واوقفتها صاحبة الحانة .) اتركي زجاجتين هنا : و . . يا كينو اعتذر عن ازعاجي لك ، ولكن اذهبي من فضلك لعند سوزويا واجلبي من عندها صحنين من العجائن ، باسرع ما يمكن .

جلستُ الى جانب « شي » قربَ مُشِعّ التدفئة ودفأتُ يديّ .

- اجلسي بصورة أرْيح . خذي ، هذه الوسادة . كم هو برد ! ألا تريدين ان تشربي شيئاً ؟ وافرغت صاحبة الحانة قسما من زجاجة الساكه في فنجانها ثم ملأتْ فنجانينا .

وشربنا نحن الثلاثة في سكون . ثم قالت صاحبة الحانة بلهجة صداقة تبدو غريبة منها :

— انتما تتحملان الساكه جيداً ، على ما أرى !

واشار صرير الى انفتاح الباب . وقال صوت شاب :

– انظر يا سيد اويهارا . المالك بخيل شحيح لدرجة انني ما كدت انتزع منه عشرة آلاف ين الا بالجهد ، رغم انني طلبتُ منه عشرين ألفاً .

فقاطعه صوت السيد اويهارا المبحوح :

– شيك ؟

– كلا ، عملة .مع الاسف .

– « آه » ! سيان . سأوقع وصلا .

وتابع الحضور هريرهم باغنيـــة الشراب : « يامقصلة ، يامقصلة ، شورو شورو شو » دون ان يتوقفوا حتى في اثناء تلك المحادثة .

وسألتْ صاحبة الحانة « شي » بهيئة رزينة :

ماذا حصل لناووجي ؟

اما انا فصُعقت لهذا السؤال .

فقالتْ « شي » وقد زادها احمرار الخجل جمالاً :

– كيف يمكن ان أعرف ؟ ليس في عهدتي .

واستأنفَتْ المُضيفة بهدوء مستمر :

– أنا اتساءل ما اذا كان قد حدث انفصال بينه وبين السيد اويهارا . كنا معتادين ان نراهما معاً .

– سمعتُ من يقول انه َهوِسَ بالرقص . والارجـــح ان عشيقته الاخيرة راقصة .

ـ ناووجي ، ليس عنده حسن الاقتصاد... نساء فوق شغفه بالغَوْل !

ـ هكذا اراد السيد اوبهارا.

ـ يجب ان تكون لناووجي طبيعة سيئة . عندما تسوء حال الولد المدلّل ...

وفكّرتُ ان التزام الصمت أقلّ أدباً من مقاطعتها فقلت بشبه ابتسامة :

ـ عفواً ! انا اخت ناووجي.

فحدّقتْ صاحبة الحانة في وجهي من جديد وقد بدا عليها الاندهاش بصورة واضحة . وقالت لي « شي » ببساطة دون ان يتغير فيها شيء .

ـ انت تشبهينه كثيراً. عندما رأيتك تدخلين صدمني ذلك. وبقيتُ دقيقة اتساءل اذا لم يكن هذا ناووجي .

ـ وقالت صاحبة الحانة بصوت فيه مسحة من الاحترام :

ـ أوه ! حقاً ؟ اذن تأتين الى مكان قذر دنس كهذا ! ولكن هل كنت تعرفين السيد اوبهارا ؟

فقلت بصوت مخنوق خافضة الرأس وقد كادت دموعي تنهمر :

ـ نعم التقيت به منذ ست سنوات .

ودخلت الخادمة وهي آتية بالعجائن :

ـ اعتذر عن اطالة انتظاركنّ .

وتقدمت صاحبة الحانة لتخدمني :

ـ تفضّلي كليها وهي ساخنة .

- شكرا .

واخفيت وجهي في البخار المتصاعد من العجائن واخذت ازدردها بسرعة. وظننت آنذاك انني أحس بإقصى ما في كوني على قيد الحياة من بؤس وشقاء.

ودخل السيد اوهارا الى الغرفة وهو يغني بصوت خافت :« يامقصلة ، يامقصلة ، شورو ، شورو شو » . ثم انهال بجانبي ، ومد غلافا كبيرا الى صاحبة الحانة دون ان ينبس بكلمة .

اما هي ، فالقته في درج حتى بدون ان تسترق نظرة الى داخله ، ثم قالت ضاحكة :

- لاتظن انك خلصت بهذا . فلن اسامحك بالباقي .
- سآتيك به . سأسدد الحساب في العام المقبل .
- هل استطيع ان اصدق ؟

عشرة آلاف ين . كم من المصابيح الكهربائية يمكن شراؤها بهذا المبلغ . انه يكفيني لأعيش به سنة عن سعة .

هؤلاء البشر من ذوي الانحرافات . ولكن ربما انهم لايستطيعون الاستمرار في الحياة الا بهذه الطريقة كما هي الحال بالنسبة لحبي . اذا كان صحيحا أن على الانسان ، متى ولد في هذا العالم ، ان يستمر في الحياة بطريقة أو باخرى ، فربما كان لا ينبغي ان نستوحي الازدراء به من المظهر الذي يرتديه للتوصل الى ذلك ، حتى ولو كانت حياته بشعة بقدر مايظهر عليها .أن يحيا الانسان حياته . أن يحيا . عملية رهيبة الاتساع لايستطيع امامها الا ان تنبهر انفاسه من الخوف المبهم

وقال صوت رجل في الغرفة المجاورة :

— على كل حال اذا كان الناس من أمثالنا ، الذين يعيشون في طوكيو ، لم يعودوا يستطيعون أن يتبادلوا ببرودة تحية خفيفة صغيرة ، فقد انتهى الأمر ! ان مطالبتنا في الوقت الحاضر بهذه الفضائل : كالاحترام والصدق ، تعني شد المشنوق من رجليه . الاحترام ... الصدق ... ترّهات ! هل يمكننا أن نستمر في الحياة بذلك ؟ اذا كنا لانستطيع تبادل التحية بكلمة بسيطة ، دون تكلّف ، فلا يبقى أمامنا سوى ثلاث موارد : العودة الى الارض ، أو الانتحار ، أو أن يصبح المرء عاشقاً أجيراً لاحدى المومسات .

وقال رجل آخر :

— أما العاثر الحظ الذي لايستطيع اللجوء الى أي من هذه الحلول الثلاثة فيستطيع اللجوء الى حل أخير . انه يستطيع أن يطلب قرضاً من اويهارا ويسكر حتى الموت .

« يامقصلة ، يامقصلة ، شورو شوروشو ! يامقصلة ، يامقصلة ، شورو شورو شو ! »

وسأل اويهارا همساً :

— أظن أنكِ لاتعرفين أين تقضين الليلة .

— أنا ؟

وشعرتُ بالأفعى ترفع رأسها ضد نفسها . شعور عدائي . شعور قريب من البغضاء شدد أوتار جسدي .

وهمس السيد اويهارا دون أن يعير انتباهاً لغضبي الظاهر للعيان .

– هل تستطيعين النوم في نفس الغرفة التي ننام فيها ؟ الطقس بارد !

فقالت صاحبة الحانة :

– هذا غير ممكن . ماعندك قلب .

وطق السيد اويهارا بلسانه على أسنانه :

– في هذه الحال كان يجب أن لاتأتي الى هنا من نفسها .

بقيتُ صامتة . كان في استطاعتي أن اقسم ، بناء على لهجته ، انه قرأ رسائلي ، وفي هذه اللحظة فهمتُ انه يحبني اكثر من اي كانت .

وتابع قائلا :

– ليس في اليد حيلة . قد تكون فكرة حسنة أن نطلب سريرا عند فوكوي . « شي » خذيها الى هناك ، هل تريدين ؟ ثم فكّر وقال : كلا ، من الخطر على امرأتين أن تذهبا وحدهما في الشوارع . أي ازعاج شيطاني ! ينبغي أن اقتادها الى هناك بنفسي .

ما كدنا نخرج حتى شعرنا باننا في قلب الليل . كانت الريح قد ضعفت قليلا والسماء مملوءة بالنجوم المتلألئة . وذهبنا جنبا الى جنب . وقلت :

– كان بامكاني ان انام في نفس الغرفة مع الآخرين .

واكتفى السيد اويهارا بالدمدمة اذ بلغ به النعاس مبلغا .

وتابعتُ بضحكة صغيره :

– كنتَ تريد ان نكون وحدنا نحن الاثنين ، اليس كذلك .

وغضّنَ شفتيه في ابتسامة مرة .

ـ هذا بالضبط مايزعجني .

وادركتُ بقوة ، بل بشكل مضنٍ تقريبا ان ذلك بسبب الحب الذي يكنّه لي .

ـ انتَ تشرب كثيرا . انت تشرب هكذا كل مساء ؟

ـ كلّ يوم منذ الصباح .

هل الساكه طيّب الى هذه الدرجة .

ـ منتن

كان في لهجته نبرة جعلتني ارتعش .

ـ كيف حال شغلك ؟

ـ ليست حسنة . كل ما اكتبه الآن غبّي مرهـق . غروب الحياة . غروب الفن : غروب الانسانية . بالتفاهة !

وتمتمتُ دون ان أريد :

ـ اوتريللو .

ـ نعم اوتريللو . يقال انه ما يزال حيّاً . ضحية من ضحايا الغوْل . جثة . ان لوحاته من السنوات العشر الأخيرة مبتذلة بشكل لا يصدق وهي بدون استثناء خالية من كل قيمة .

ـ ليس هذا صحيحـــاً عن اوتريللو فقط ، أليس كذلك ؟ جميع الأعلام الآخرون في نفس الحالة !

- نعم . لقد فقدوا كل حيويتهم . ولكن الجدد فقدوا حيويتهم ايضا. لقد ذبلوا في البراعم. متجمّدون . يبدو أن صقيعاً هبط في غير أوانه على العالم أجمع.

كان قد وضع ذراعه برفق على كتفيّ . وكان جسمي كأنه ملفوف في ردائه ولكنني لم انتكر لرفيقي . كنت ازداد التصاقاً به كلما تقدمنا ببطء .

أغصان الشجر على طول الطريق . أغصان لم تعد عليها ورقة واحدة ، أغصان رقيقة ، حادة تشق سماء الليل .

وَوَشْوَشْتُ كأنني أوشوشُ نفسي :

- الأغصان جميلة ، أليس كذلك ؟

فسأل بلهجة غامضة نوعاً :

- أنتِ ترين انسجاماً بين زهور الأشجار والأغصان السوداء ؟

- كلاّ . انا لا أفكر بالزهور ولا بالأوراق ولا بالبراعم . أنا أحب الاغصان . فحتى عندما تكون عارية تماماً تبقى مليئة بالحياة . انها ليست البتّة أغصاناً ميتة .

أنتِ تجدين أن الطبيعة وحدها تحتفظ بحيويتها ؟

قال هذا وعاودته عطساته المائلة .

- لقد أخذتَ برداً ؟

- كلا . عندي عادة غريبة . في كل مرة أصل فيها الى نقطة الاشباع في السكر ابدأ فوراً بالعطس على هذه الصورة . انه الى حد ما « بارومتر » لانسجامي .

- وفيما يتعلق بالغرام ، أين وصلتَ فيه ؟

ـ كيف ؟

ـ هل عندكَ من تقربكَ من نقطة الاشباع ؟

ـ لا تضحكي علي ! النساء جميعهن متماثلات ، معقدات بشكل لعين ، يامقصلة ؛ يامقصلة ، شورو شورو شو . في الحقيقة هناك حب واحد ، كلا نصف حب .

ـ هل قرأت رسائلي ؟

ـ نعم .

ما هو جوابكَ عليها ؟

ـ أنا لا أحب الارستقراطية . فلدى الارستقراطيين دائماً هالة من العجرفة العدوانية . ان اخاك تاووجي نجاح كبير بالنسبة لارستقراطي . ولكنه ، نفسه ، من حين الى آخر يُبدي تصنعاً لا أستطيع حقاً أن أتحمله ، أنا ابن فلاح ومن المستحيل عليّ أن أسير بجانب ساقية كهذه دون ان اتذكر بألم أيام كنت أصيد سمك الشبّوط بالصنارة والزمّير بالشبكة من سواقي الريف .

كانت على جانب الشارع الذي نسير فيه ساقية تخرّ خريراً ضعيفاً في جوف الليل .

ـ أنتم الارستقراطيون لستم فقط غير قادرين على فهم مشاعرنا : بل إنكم تحتقرونها .

ـ ما رأيكَ في تورغنييف ؟

ـ كان ارستقراطياً . ولهذا لا أستحسنه .

ـ أنتَ لا تحب حتى « قصص صيّاد » ؟

ـ هذا الكتاب هو الوحيد بين كتبه الذي ليس سيئاً .

ـ انه يصور بدقة روح الحياة القرويّة .

ـ كان ارستقراطياً ريفياً . هل نتّفق حول هذا الأمر ؟

ـ أنا أيضاً فتاة من الريف الآن . انني أزرع حقلاً . فتاة ريفية فقيرة

وقال بصوت خشن :

ـ هل ما تزالين تحبينني ؟ هل تشتهين ولداً مني ؟

لم أُحرِ جواباً .

واقتربَ وجهُه من وجهي بقوة جارفة وضمّني بشدّة جنونية . كانت قبلاته تفوح بالشهوة . وبكيتُ راضية بها . كانت دموعي مرّة كدموع العار على إهانة . وتدحرجَتْ تلك الدموع على خدّي .

وبينما كنا نتقدم من جديد ، جنباً الى جنب ، استأنف الكلام :

ـ أنا مغلوب : ها أنا مغرمٌ بك .

وضحك لهذا القول .

ولما كنتُ غير قادرة على الضحك فقد قطّبت حاجبيّ وشددتُ شفتي . ولو انني عبرت عن عواطفي بكلمات لنتج عن ذلك شيء من هذا القبيل : « ليس في اليد حيلة » . وتحققتُ من انني كنتُ أجر رجليّ في سير حزين يائس . ثم كرر القول :

ـ انا مغلوب . هل ستتمكن من الإفلات ؟

ـ لا تتصنع

ـ اينها العفريتة الصغيرة !

ولامس السيد اويهارا كتفي بقبضته وعطس من جديد .

كان الجميع يبدون نياماً في بيت السيد فوكوي . فصاح السيد اويهارا وهو يطرق الباب :

ـ برقية ، برقية ! ياسيد فوكوي .

ورد صوت رجل يقول :

ـ هل هذا انت ، اويهارا ؟

ـ بالضبط . الأمير والأميرة آتيان يطلبان المآوى لهذا الليل . البردُ من الشدة بحيث لا أتوقف عن العطس . وبعد صعوبات جمّة تتحول رحلتنا الغرامية الى مهزلة .

وانفتح الباب وظهر رجل أصلع صغير الجسم في الخمسين من العمر تقريباً يلبس « بيجامة » زاهية فاخرة فرحّب بنا بابتسامة خجولة للغاية .

ـ ارجوك .

لم يقل السيد اويهارا اية كلمة اخرى وهو يَلِجُ البيت حتى بدون ان ينزع معطفه .

ـ مشغلكَ بارد بشكل رهيب . سآخذ الغرفة التي في الطابق الاول هيّا بنا .

وامسك بيـــدي واجتاز بي الممر وهو يقودني نحو الدرج الواقع في

الصدر فصعدناه . ودخلنا الى غرفة مظلمة فاشعل السيد اويهارا النور ، فقلتُ :

— كأنها الحجرة الخاصة في مطعم ، أليس كذلك ؟

— ذوقُ حديث النعمة . ومع هذافهو مفرط في الجودة بالنسبة لفنان داعر مثل فوكوي. عنـــدما يكون المرء حقاً محظوظاً كالشيطان يكسب مناعة ضد مجرى الكوارث المعتاد . اما الناس الذين على هذه الشاكلة فيجب الانتفاع بهم . هيا الى السرير ، الى السرير .

واخذ يسحب السرير من خزانة الحائط كأنه في بيته .

— ستنامين هنا . اما انا فأذهب . سأعود لأراك غداً صباحاً . بيت الخلاء في اسفل الدرج على اليمين .

ونزل يطأ الدرج متثاقلاً بحيث احدث من الضجة كما لو انه تدحرج ورأسه الى أسفل . ثم دخل البيت في سكون مطبق .

واشعلتُ النور من جديد وخلعتُ معطفي المصنوع من مخمل كان ابي قد جلبه كهدية من الخارج ؛ ونزلت في السرير محتفظة بغلالتي مكتفية بحل زناري الحرير . كنت اشعر بنفسي ثقيلة الهمـــة وذلك على الارجح بسبب الساكه الذي شربتُه و كنتُ متعبة منذ قبل فنمت لتوّي .

لا أدري ماذا حصل ، ولكنني حين فتحتُ عيني كان مضطجعا بجانبي . وبقيت ساعة ابدي مقاومة ضارية وصامتة .

وفجأة اشفقت عليه واستسلمت .

— هذه الحياة التي تحياها هل هي عزاؤكَ الوحيد ؟

- تقريبا .

- ولكن أليستْ مضرة بصحتك ؟ انا متأكدة من انك تبصق دما.

- كيف تعلمين بذلك ؟ الحقيقة انني أصبتُ بنوبة خطيرة منذ ايام ، ولكنني لم اقل ذلك لأحد .

- كانتِ الرائحةُ نفسُها تنبعث من أمي قبل وفاتها بقليل .

- انني أشرب من اليأس . الحياة أقسى من أن تحتمل . فالبؤس والعزلة والعراقيل كل هذا يحطم الانسان . ففي كل مرة يسمع فيها الانسان التنهدات المشؤومة التي تطلقها الجدران الأربعة المحيطة به يعلم أن ليس له ثمة نصيب من السعادة . أية مشاعر تظنين أن رجلا يمكن أن يحس بها عندما يتحقق من أنه لن يعرف السعادة ولا المجد أبدا مها طالت به الحياة ؟ أشغال شاقة . لاينتج منها الا القدر الكافي لسد رمق حيوانات مفترسة جائعة . هناك الكثير الكثير من الناس الذين يستحقون الشفقة ... هل هذا أيضاً تصنع .

- كلاّ .

- كلاّ ، انه الحب . تماما كما ذكرتِ في رسائلك .

- نعم .

كان حبّي قد انطفأ .

وعندما بدا في الغرفة نور خفيف ، تفحصتُ وجه الرجل الذي كان ينام بجانبي . كان وجه انسان يشرف على الموت . كان وجهاً كليلاً منهوكاً .

وجه ضحية ، ضحية نبيلة .

رَجلي . قوس قزحي . ولدي . رجل كريه . رجل بدون مبادىء.

وبدا لي ذلك الوجه آنذاك في جمال لامثيل له في العـالم كله . وخفق قلبي باحساس حب يبعث . فقبّلته وأنا اداعب شعره .

الحب ... ياللأمر الحزين .

وأخذني السيد اويهارا بين ذراعيه وهو مايزال مغمض العينين .

— لقد اخطأت تماما . ماذا تنتظرين من ابن فلاح ؟

لن استطيـع أن أتركه .

— أنا سعيد الآن . وحتى ولو كان علي أن أسمـــع جدراني الأربعة تطلق صرخات العذاب المبرّح فان شعوري بالسعادة قد يبقى في نقطة الاشباع . أنا سعيد للغاية بأنني قد أستطيـع أن أعطس .

وأخذ السيد اويهارا يضحك .

— ولكن فات الوقت . ها قد بزغ الفجر !

— ها هو الصباح .

في ذلك الصباح انتحر أخي ناووجي .

- ٧ -

وصية ناووجي

اختي الحبيبة .

لقد سدت الابواب وانا ذاهب .

علام الاستمرار في الحياة ؟ وانا لا ارى المبرر له .

لايحيا الا الذين يشتهون الحياة .

وكما ان للمرء الحق في ان يحيا كذلك يجب ان يكون له الحق في ان يموت.

ليس من جديد في ما اعتقده : الناس بكل بساطة وحسن نية ينفرون. اشد النفور استغلاقا على التفسير ازاء هذه الفكرة البدهية - لكي لا اقول الأولية - وهم يرفضون القبول بها .

من يرغبون الاستمرار في الحياة يستطيعون دائما ان يتدبروا امورهم لكي يبقوا على قيد الحياة مهما تكن العقبات . هذا رائع من جانبهم واجرؤ على القول ان مايسمى مجد الانسانية يضم هذه النظرية . ولكنني على يقين من ان قتل المرء نفسه ليس خطيئة .

فبالنسبة للنبات الذي انا هو ، من المؤلم ان أعيش في جو هذا العالم ووسط نوره . ينقصه عنصر كان يمكن ان يتيح لي الاستمرار . انا بحاجة الى شيء آخر . لقد عملت كل ما استطعته لأبقى على قيد الحياة حتى الآن .

عندما دخلتُ الى الجامعة واتصلت برفاق من وسط بسيطٍ وقويّ ،

،وبشبان من طبقة اجتماعية تختلف كلياً عن طبقتي ،جعلتني حيويتهم اقف موقف الدفاع ، ولكي لاأهزم لجأت الى العقاقير ، فصمدتُ امامهم في شبه هذيان . وفيما بعد عندما اصبحتُ جنديا كانت وسيلتي الوحيدة للبقاء على قيد الحياة هي ان اتناول الافيون . انت لاتستطيعين فَهْمَ ما كنت اعانيه ، اليس كذلك ؟

كنت اريد ان اصبح خشنا ، أن اكون قويا ـ كلا ، بل قاسيا . كنت افكر انها كانت الطريقة الوحيدة لأتمكّن من وصف نفسي بـ « صديق الشعب » . لم يكن الساكه ليكفي . كان ينبغي لي ان اظل دون انقطاع في حالة دُوّار . ولذلك كان عليّ ان اتناول العقاقير . كان عليّ ان انسى عائلتي . كان عليّ أن اعارض دم [1] والدي . كان عليّ ان انبذ وداعة امي . كان عليّ ان اظل باردا ازاء اختي . اعتقدت انني بغير ذلك لن اتمكن من الحصول على بطاقة دخول الى مجالس الشعب .

فتقسّيتُ وتصلّبتُ . تعلمت أن استعمل لغة فظّة . ولكنّ ذلك كان في نصفه ـ كلا ، في ستين بالمئة منه ـ خداعاً شنيعاً ، وشكلًا غريباً من الغش الخسيس . ففيما يتعلق بأبناء الشعب ، كنت في نظرهم رجلا متصنّعاً يعتبرهم أدنى منه . ولايمكن أبداً أن يكفّوا عن الانحناء أمامي ، لن يشعروا أبداً بالارتياح إليّ . ومن جهة اخرى من المستحيل عليّ الآن أن أعود الى تلك الصالات التي تركتها . فحتى لو فرضنا ان خشونتي هي تصنّع بنسبة ستين بالمئة ، فان الاربعين الباقية في المئة قد اصبحت حقيقية . ان التأدّب غير المحتمل لدى مجتمعات الطبقة « المعتبرة » يقزّز نفسي ولايمكنني أن أطيقه لحظة واحدة . ان

---

(١) الدم هنا يعني النسب والمحتد (المترجم)

حركاتي وأساليبي الفظّة ستثير عليّ هؤلاء الناس المميّزين ، هؤلاء المواطنين الرفيعي المقام ، كما يُدْعَون ، وسوف يطردوني بسرعة . أنا لا أستطيع أن أعود الى العالم الذي هجرته وكل مايقدّمه لي « الشعب » بتأدب مخجل ، مليء بالخبث ، هو مقعد في غرفة الزوار الداخلية .

قـــد يكون صحيحاً أنّ في كل مجتمع نماذج ناقصة مشوّشة ، قليلة الحيوية ، مثلي ، يكون محكوماً عليهم بالهلاك ، لا بسبب مايعتقدونه ، بـل بسبب نسبهم بالذات . غير أن لي عذراً صغيراً أود أن أقدمـــه : ان ضغط الظروف التي تجعل من العسير عليّ للغاية ان اعيش ، يسحقني .

الناس جميعهم متماثلون .

اتساءل ما اذا كان هذا القول فلسفة ام لا . لااعتقد ان الانسان الذي كان اول من خطرت بفكره هذه العبارة العجيبة انمـا كان راهبا اوفيلسوفا او فنّانا . من المؤكد ان هذه العبارة خرجت من حانة عامة كذبابة صغيرة ، دون ان يتلفّظ بها انسان ، هذه العبارة المقيّض لها ان تشوّش حياة الكون كله وتجعله كريها يقزز النفس .

وليس لهذا الزعم الغريب اية علاقة مطلقا لا بالديمقراطية ولا بالماركسية . ولا شك ابدا انها عواء وجّهه في حانة انسان بشع الى انسان جميل . كان ذلك مجرّد هياج او اذا شئت مجرّد حسد ، ولم تكن له اية علاقة بالايديولوجية ولا بايّ شيء من هذا القبيل .

ولكنّ ما كان في الاصل صرخة حسدٍ مُرّة أطلقت في حانة اتخذ قيمة مذهبية استقرت بين عامة البشر بحيث ان رأيا لم يكن له ، على مايظهر ، اية علاقة ممكنة لا بالديمقراطية ولا بالماركسية ، علق من نفسه ، في غفلة من

الحذر ، بالمذهب الاقتصادي والسياسي مؤدّيا الى خلق تشويش من العار والشنار بقدر لايصدق .

اتصوّر ان هذا الغش القائم على تحويل نظرية حمقاء بهذا المقدار الى مذهب وعقيدة ، انما هو غشّ كان ميفستو (١) نفسه سيعتبر القيام به اهانة من الفداحة على ضميره بحيث يتردد في امره .

الناس جميعهم متماثلون .

ياله من رأي خنوعٍ ذليل ! رأي ينحط بنفسه ، كما ينحط بالبشر في الوقت نفسه ، بقدر ماهو رأي يخلو من الكبرياء ويرمي الى التبشير بالتخلي عن كل جهد . الماركسية تنادي بتفوق الشغيلة : انها لاتقول بانهم جميعا متماثلون. والديمقراطية تُنادي بكرامة الفرد : انها لاتقول بانهم جميعا متماثلون . وليس سوى رجل جلف كخادم في مزرعة يؤكد قائلا : « بلا شك ! ليأخذ ماطاب له من المظاهر ، انه انسان مثله مثل جميع الاخرين ».

لماذا يقول « مثل » ؟ ألا يستطيع ان يقول « أحسن » ؟ انه انتقام عقلية العبد !

أعتقد أن من هذه العبـــارة غير المعقولة بالذات تأتي اللا أخلاقيــة وقلة الاحساس والخوف الذي يسببه الناس بعضهم لبعض ، وخرق جميع المبادىء وان بها يُهْزأ بالجهد وتُنْكَرُ السعادة ويومَّخُ الجمال ويُجَرْجَرُ الشرف في الوحل ، وان منها تولّد « قلق العصر » .

---

(١) « ميفستو فيلس » « Méphisto Phélès » تسمية الشيطان نشرها كتاب «فوست» من تأليف غوته الذي استعارها من اسطورة دكتور فوست القديمة (المترجم).

ومع كوني أجد هذه العبارة مقيتة بغيضة فانها كانت تُرعبني ، كانت تجعلني ارتجف من الخوف ، وكنتُ ، مهما عملتُ ، ابقى مرتبكا ، كنت فريسة لقلق دائم ، فكان قلبي يخفق ، ولم اكن اعلم اين اجد الراحة .وبفضل الدوار الذي يسببه المساكر والعقاقير كنتُ احصل على لحظة من الراحة وعند ذاك عرفتُ أسوأ أنواع الفوضى .

لابد أنني ضعيف . لا بد أن عندي نقصاً خطيراً . وربما قال خادم المزرعة العجوز بضحكة ساخرة « الى ماترمي جميع هذه الحجج ؟ ولكنه شاب كان دائماً يحب العهر والفجور ، انه كسول ماجن . انه طفل أناني لا يحب سوى ملذّاته » . لقد كنت حتى هذا الحين أنطوي على نفسي خجلا عندما يتكلم الناس عني بمثل هذه العبارات ، أما الآن ، وأنا اشرف على الموت ، فأودّ أن أرفع كلمة احتجاج .

أختي الحبيبة .

أتوسل اليك، صدّقيني .

لم تشعرني الملذات بأقل فرح . وربما كان هذا دليلًا على عجز اللهو . ولم ارتكب الحماقات الا لأنني ارستقراطيّ أراد أن يهرب من ظله .

اني أتساءل عما اذا كنا نستحق اللوم ، بعد كل هذا . هل هي جريمتنا أن نكون قد ولدنا ارستقراطيين ؟ فلمجرد كوننا ولدنا في هذه العائلة ، نحن محكوم علينا أن نقضي حياتنا كلها في الاهانة والتحقير ، في تقديم الاعتذارات والتذلل كالكثيرين من اليهود .

كان يجب ان أموت قبل الآن . غير أنه كان ثمّة عائق : كنت أحب

امي . وعندما كنت أفكر فيها لم أكن أستطيع ان اقتل نفسي . صحيح ، كما قلت سابقاً ، ان للانسان الحق في أن يموت متى شاء ، بقدر ماله الحق في أن يعيش كما يروق له ، غير انني ، اثناء وجود أمي على قيد الحياة ، كنت افكر بان الحق في الموت يجب أن يُوضع جانباً اذ ان ممارسته كانت ستعني قتلها هي .

أما الآن فاذا متّ ، فليس ثمة من يتـألم لذلك لدرجة العذاب حتى الموت . كلا ، أنا أعلم يا كازو كو أي مبلـغ من الحزن سيسبب لكِ موتي . من المؤكد انك ستبكين عندما تسمعين الخبر - هذا بالاضافة الى المظـاهر الانفعالية الرسمية التي يجب عليك اظهارها - ولكن اذا حاولت التفكير بأنني سأكون سعيداً بأن اتخلص كلّيا من عذاب الحياة ومن هذه الحيـاة البغيضة نفسها ، فأنا اعتقد ان حزنك سيذوب تدريجياً .

أما الذين سيحكمون عليّ متخذين وضعية الاذكياء وينتقدون انتحاري ، مكررين القول بأنني كان يجب أن أحيا حياتي دون أن أختصرها ، ولكنهم بذات الوقت لم يكونوا على استعداد لأن يمنحوني أقل مساعدة لهذا الغرض ، ان هؤلاء لايختلفون عن اولئك الأذكياء الذين بوسعهم أن يحثّوا صـاحب الجلالة على فتح دكان لبيـع الفواكه .

يا كازو كو .

من الأفضل أن أموت . أنا لست قادراً على الحياة . ليست لديّ القدرة لأتشاجر مع الآخرين حول مسائل مالية . وانا لا استطيـع حتى ان استثير عاطفة أناس ليمنحوني مساعدة . فحتى عندما كنت أذهبُ لأشرب مع السيد اويهارا ، كنت دائماً أدفعُ ما عليّ من الحساب . وكان يكرهني لذلك ويسميه تكبّر الارستقراطية الاحمق ، ولم أكن ادفع ثمن حصتي من باب التكبر ابدا

بل كنت اخشى ان استسلم فأشرب واعشق النساء بفضل ماله ، ذلك المال الذي كان يقبضه من عمله . كنت معتاداً أن اجيب محتجاً بانني انما أفعل ذلك احتراماً لكتابات السيد اويهارا ولكن ذلك كان كذبـاً . لم اكن حقاً افهم نفسي عندما كنت افعله . ولكن كان يؤلمني أن يدفع الغير حسابي . ولكان على الأخص من المؤلم المقزز للنفس بصورة لا تحتمل ان اعيش على مـــال كسبه انسان آخر بجهوده الشخصية .

وعندما اضطررت الى أخذ المال والأرزاق التي كانت تأتي من بيتي بالذات ، كنت اعذبك واعذب أمي دون أن احصل على أية لذة . اما عملية دار النشر التي كنت انوي الشروع فيها فلم تكن سوى ستار لأخفي تشوشي المالي ، ذلك ان هذا المشروع لم يكن جدياً على الاطلاق . فرغم كل حماقتي ، كنت على الأقل أُدْرِكُ ان الذي لا يستطيع ان يتحمل ان يدفع عنه الغير ثمن كأس سيكون عاجزاً كلياً عن كسب المال واماجديته ستكون دون ماجدوى.

كازوكو .

لقد أصبحنا أناساً فقراء . وعندما كنت حياً وكانت لدي الامكانيات فكرت دائماً ان ادفع عن الآخرين ، اما الان فنحن لا نستطيع ان نعيش الا اذا دفع عنا الآخرون الثمن .

كازوكو .

لماذا يجب ان استمر في الحياة بعد كل ماحصل ؟ لا طائل من ذلك . سأموت . معي سمٌ يقتل دون ألم . لقد استحضرت عليه عندما كنت جندياً واحتفظت به منذ ذلك الحين .

كازوكو ، انت جميلة (وقد كنت دائماً فخوراً بجمال أمي وأختي) وانت ذكية . اني لا اقلق عليك البتة . بل ليس لديّ مبررات لان اقلق . بل استطيع فقط أن أحمرّ ... كسارق يعطف على ضحيته ! أنا واثق انك ستتزوجين وانك سترزقين أولادا وانك ستتمكنين من العيش بفضل زوجك.

كازوكو ،

لديّ سر .

لقد أخفيته طويلًا ، طويلًا . وحتى عندما كنت احارب كنت افكر فيها واحلم بها . ولا أستطيع ان اقول لك كم من المرات استيقظت لألاحظ اني بكيت وانا نائم .

لن اكون ابداً قادراً على ذكر اسمها لاي كان ، ولكنني فكرت اني قد اتحدث عنها معك على الاقل ، ياشقيقتي ، بما انني الان على وشك ان اموت . غير انني أتبين ان هذا السر يخيفني بشكل رهيب الى درجة انني لا اجرؤ على كتابة اسمها .

وأشعر مع ذلك انني اذا متُّ محتفظاً بالسر المطلق اذا دفعته في أعمق أعماق قلبي ، فان داخل هذا القلب سيبقي ، انه سيرفض أن يحترق لدى احراق جثتي وسيظل سليماً من كل مسّ . إن هذه الفكرة تقلقني حتى انـه يجب علي أن أفضي بسرّي اليك ، اليك وحدك ... بطريقة غير مباشرة ، غير واضحة ، كما لو كان الأمر يتعلق برواية غريبة عني . وحتى لو وصفته بأنـه خيال فأنا واثق انكِ ستعرفين فوراً عمّن أتكلم . والمسألة مسألة طريقة لاخفاء القضية باستعمال اسماء مستعارة اكثر مما هي مسألة وهم أو تلفيق .

هل انت مطّلعة على الأمر ؟ هذا ماأتساءل عنه .

أتصوّر أنكِ تعرفين بوجودها ، رغم أنكِ ربما لم تلتقِ بها قط . انها أكبر منكِ سناً بقليل . لها عينان مائلتان وتسرح شعرها (الذي لم يتعرف قط لتسريحة « دائمة ») على الطريقة التقليدية الصرف مشدوداً الى الوراء . ثيابها عتيقة ولكنها ثياب كاملة خالية من كل عيب ، وهي تلبسها بإناقة حقيقية تلفت الانتباه . انها زوجة رسام ما ، في متوسط العمر ، اشتهر فجأة بعد الحرب بانتاجه سلسلة سريعة من اللوحات ذات النمط الجديد . وهذا الرسام ماجن جداً ، ولكن زوجته كانت دائماً تحتفظ بابتسامة لطيفة متظاهرة بأنها لاتتكدر من سلوك زوجها .

نهضت . « اسمحي لي أن أستأذن بالانصراف » .

ونهضَتْ هي أيضاً ورافقتني دونما تحفّظ وسألَتْ « لماذا » ؟ وهي تنظر الى وجهي . كان لصوتها جَرْسُه المألوف . وأحنَتْ رأسها قليلا الى جانب ، وكأنها تشك حقاً في ذلك وحدقت في عينيّ . لم يكن في عينيها خبث ولا ادعاء . كنت عادة ، اذا التقى نظري بنظرها ، أشيح بوجهي خجلاً ، أما هذه المرة ، وبصورة استثنائية ، فلم أشعر بأقل الخجل . وتفحصت أعماق حدقتيها لمدة ستين ثانية أو أكثر وجهاً الى وجه ، على ثلاثين سنتمتراً ، وأنا أشعر بسعادة لاحدود لها . وأخيراً قلت مبتسماً : « ولكن ... »

فقالت بوجه رصين :

ـ سيعود فوراً .

وظهر لي فجأة أن مايسميه الناس « الأمانة والاخلاص » يمكن تماماً أن يتخذ هذا المحيّا رمزاً له .

وتساءلت عما اذا كان ماتعنيه هذه الكلمة أصلا لم يكن محببا ، كسيماء هذا الوجه، اكثر منه مزّ المذاق كما هي الفضيلة المتقشفة ذات العفن والنتن الخبيثين فضيلة كتب الأخلاق . وقلت :

— سأعود .

— اتفقنا .

كانت أحاديثنا من البداية حتى النهاية غير ذات بال مطلقا . وبعد الظهر من ذاك اليوم الصيفي ذهبتُ الى منزل الرسام . كان قد خرج ولكنّ رجوعه كان متوقعاً بين حين وآخر . وعَرضَتْ عليّ زوجته أن أنتظر وبقيتُ نصف ساعة اقلّبُ صفحات المجلات . ولما طال غيابه قمتُ لاستأذن بالانصراف . لم يحصل شيء اكثر من ذلك . ولكنني وقعت وقوعاً مؤلماً في حب عينيها كما كانا في ذلك اليوم .

يمكن حتى وصفها بأنها عينان « نبيلتان » . واستطيع فقط أن أقول بكل ثقة ان ايا من الارستقراطيين الذين كنا نعيش بينهم - ماعدا ماما — لم يكن بالامكان ان يصدر عنه ذاك التعبير اللاواعي عن الشرف .

ثمّ ذات مساء من أيام الشتاء، تأثرتُ عميق التأثر بظهرها الجانبي. كنت منذ الصباح قد شربتُ مع الرسام في مشغله وضحكنا بصوت عال ساخرين مما يسمّى « الناس المثقفون في اليابان » . ونعس الفنان ونام وأخذ بعد قليل يشخر

بصخب شديد . وكنتُ أيضاً قد أغفيت عندما شعرتُ أن أحـداً مايمد علي غطاء برفق . ففتحتُ عينيّ فتحا كامـلا ورأيتها جالسة بهدوء أمام النافذة وابنتها بين ذراعيها وكأنما تبرز من السماء الزرقاء الصافية الخاصـة بامسيات الشتاء في طوكيو . كان مظهرها الجانبي النقيّ ، وخطوطه المرسومة بوضاءة وجه رُسِمَ من ايام النهضة ، تختلف تباينا على خَلْفيّةِ السماء البعيدة الضاربـة الى الزرقة . لاغنج ولا شهوة امتزجا باللطف الذي دفعها الى القاء غطاء فوقي. هل نستطيـع أن نبعث الحياة في كلمة « انسانية » لنصف لحظة كهذه ؟ لقد قامت بعملها دون أن تعي تقريبا ما كانت تفعله ، طبيعيةً كانت حركتهـا التامّة عن عطف على انسان آخر ، وبعدها اخذت تشخص بنظرها الى السماء البعيدة في جو من عدم الحراك يشبه تماما الجو الذي تبعثه لوحة فنية .

اغمضت عينيّ . شَعَرْتُني غارقا في موجة من الحب والحنين. ورشحت الدموع من جفني وسحبتُ الغطاء الى مافوق رأسي .

كازوكو ،

ترددتُ في البدء على بيت الرسام لأنني كنت متسمما بالنمط الفريد في أعماله وبالانفعالات الضارية التي تكمن فيها ، ولكنني مع تقدمي في معرفـة حياته الخاصـــة ، خيب ظني جهله وميوعتُه وقذارتُه . وكان جمال عواطف زوجته يجتذبني في نسبة تطـّرد عكساً مع ذلك. كلاّ. كنت في الحقيقة مغرماً بانسانة ذات عاطفة صادقة . ووصل بي الأمر الى التردد على بيت الرسام وأملي الوحيد أن ألمح زوجته .

انني واثق انه اذا أمكن استشفاف قليل من النبل الفـّني في أعمـــال الرسام فهو على الأرجح انعكاس من روح زوجته الرقيق .

وليس هذا الفنان (وسأعطيك انطباعي عنه بوضوح) سوى رجل أعمال ذكي ، موهوب ، شرّيب خمر كبير وعربيد داعر كبير . وعندما يحتاج الى المال من أجل ملذاته ، « يشخبط » لوحة يبيعها بأغلى الثمن متظاهراً بمظهر الفنان الكبير ومستثمراً موجة التحذلق الرائجة . أما محسّناته الوحيدة فهي جرأة فلاح وثقة جنونية بالنفس بل وموهبة تجارية حقيقية .

وهو على الأرجح لايفهم شيئاً من رسوم الأعلام الأجانب ولا اليابانيين ، وأشكُ فيما اذا كان يفهم حتى ماتعنيه لوحاته . وينتج عن ذلك انه يرتجل لوحة بصورة محمومة كلما ضغطت عليه الحاجة الى المال .

ومما يكاد لايُصدّق أنه لايبدو عليه أية شكوك أو خجل أو تخوف أو خشية ازاء خرشباته . انه في الحقيقة يوهم نفسه . ولما كان رجلاً لايفهم حتى مايرسمه بنفسه ، فليس بالامكان أن نتوقّع منه ان يُقدّر قيمة أعمال الآخرين . بل بالعكس يكتفي بانتقادهم والحط من قيمتهم .

أو بتعبير آخر ، فهو رغم تباكيه وصراخه من العذابات التي يقاسيها بسبب حياته المنحطة ، ليس في الحقيقة سوى غليظ الطبع ، أتى من الريف الى العاصمة كما كان يتمنى بجرارة ، وأحرز فيها نجاحاً لم يكن يتوقعه ، فسكر به وهو الآن يتنقل من ملذة الى ملذة .

قلتُ له ذات يوم « عندما يخرج جميع أصدقائي ليفرحوا ويبتهجوا وأبقى وحدي أشتغل ، أظـلُّ متضايقاً من نفسي ويبلغ بي الخوف مبلغاً لا أستطيع معه أن أعمل شيئاً . ولهذا انضم الى الجماعة حتى ولو لم تكن لدي أية رغبة في الخروج ».

فأجابني الفنان البالغ سن التعقل « ماذا ! هذا مايسمّى ، على ماأعتقد، لمحة من المزاج الارستقراطي . ان هذا تأثير انفعالي . فعندما ارى أناساً يمرحون ويفيدون من ملذات الحياة ، أفكر بما اخسره اذا لم افعل مثلهم ، فألقي بنفسي دون تروٍ في الملذات » .

كان جوابه عفوياً الى درجة جعلتني اكرهه من اعماق قلبي . ان حياته الطائشة لا تسبب له اي شعور بالندم . بل بالعكس هو يتباهى مفاخراً بملذاته الحمقاء . انه نموذج الهيدوني [1] الغبي بالذات .

بامكاني ان اذكر العديد من الصفات المستنكرة بصدد هذا الفنان ؛ ولكنه ، على كل حال لا شأن لديكِ واتذكر من جهة اخرى ، منذ ان اخذت اقترب من الموت ، تلك العلاقات الطويلة التي كانت بيننا ، واحنّ كثيراً الى لقائه من جديد بحيث انني لو استسلمتُ لنزواتي لذهبتُ لاشرب معه مرة اخرى . فلديه كثير من الصفات الشيقة ولن اقول المزيد بصدده .

احب فقط ان تعلمي أية عذابات عانيتها من عشق زوجته . ولكن ، مادمت تعلمين بذلك الآن ، فلا تظني البتة انك ملزمة بالاسراع الى اعلانه لاي كان بأمل اثارة « الامتنان » للحب او اي شيء من هذا القبيل مما عاناه اخوك في حياته . يكفي ان تعلمي بــــه انت وكوني طيبة بما يكفي لان تهمسي في نفسك « هل هذا ممكن ؟ » . بل واعرب عن امنية اخرى هي انني سأكون سعيداً جداً اذا كان هذا الاعتراف المخجل يتيح لك ، انت على الأقل ، ان تتفهمي بصورة افضل ماعانيته من عذاب وألم .

---

(١) هيدوني Hédoniste . والهيدونية Hédonisme عقيدة تجعل من اللذة غاية للحياة (المترجم)

حلمتُ مرة اننا نمسك بايدي بعضنا ، أنا وزوجته ، وفهمت فوراً انها كانت تحبني منذ زمن طويل وبقيت احتفظ بحرارة اصابعها في راحة يدي حتى بعد زوال الحلم . وقلت لنفسي يجب ان اكتفي بذلك وان لا احصل على اي مزيد. لا لأن هذا المشهد الأخلاقي ازعجني بل ان ذلك الفنان شبه المجنون ، لا بل المجنون تقريباً ، كان يرعبني ونتج جزئياً عن قراري بالتخلي عنها ، ان حاولت توجيه نيران قلبي نحو شيء آخر فافرطتُ في الشراب وانهمكتُ في السكر برفقة شتى اشكال النساء ، غير مكترث بمن هنّ وما هنّ ، مكتفياً بان تكونن سهلات المنال . وفعلت ذلك بطريقة فاضحة لدرجة ان ذلك الفنان نفسه القى علي ذات مساء نظرة لوم . كنتُ على وجه العموم أسعى الى الافلات من سحر زوجته ، الى نسيانها الى الانتهاء كلياً منها . ولكن عبثاً حاولت . انني على ما يبدو رجل لا يستطيع ان يحب الا امرأة واحدة. اريد ان اعلن هذا ايجابياً ، فانا لم استحسن ولم استلطف قط امرأة احد من اصدقائي إلاها .

كازوكو ،

اودّ ان أكتب اسمها مرة واحدة قبل أن أموت :

سوفا .

هذا هو اسمها .

أتيتُ أمس الى هنا ، الى « الدارة » ، براقصة (هي امرأة عميقة الغباء) لم اكن اشعر نحوها باية عاطفة . لم افكر مطلقاً ، لدى وصولي ، بانني سأموتُ غداً ، رغم ان قلبي في الحقيقة حدّثني بانه لن يمضي وقت طويل قبل ان أضع حدّاً لحياتي . واذا كنتُ قد أتيتُ الى هنا فلانها طلبتْ مني ان

آخذها في رحلة ، وكنتُ في اشد الملل من الحياة المنحلّة التي كنتُ احياها في طوكيو ، بحيث استحسنت ان آتي واستريح هنا ، بضعة ايام ، مع هذه البنت الغبيّة . كنت اعلم جيداً ان هذا سيبدو لكِ مستهجناً ولكنني اتيتُ بها رغم ذلك . وعندما ذهبتِ الى صديقتكِ في طوكيو اخترقتْ ذهني فكرة هي « اذا كان عليّ ان اقتلَ نفسي فهذا هو الوقتُ المناسب » .

لقد فكرتُ دائماً انني احبُّ ان اموتَ في الغرفة الواقعة في صدر بيتنا في شارع نيشيكاتا . كنتُ أرتعبُ من الموت في الساحة العامة خوفاً من ان يعبث بجثتي اناس مجهولون قد يتجمعون حولي منهمكين . ولكن بيتنا في شارع نيشيكاتا انتقل الى ايدٍ اخرى فكنتُ اعلم انني سأموتُ في هذه « الدارة » . وعندما كنت اقول لنفسي ، حتى في هذه الحال ، انكِ انتِ التي ستعثرين على جثتي ، وعندما كنت اتصور كم ستضطربين لذلك ، كنت اتردد جداً امام الانتحار بحيث لم أكن لأُصمم على الاقدام عليه بسهولة .

والآن سنحتِ الفرصة . أنتِ غائبة وفي مكانك راقصة مجردة من الروح ستكون الوحيدة التي تكتشف انتحاري .

في الليلة الماضية سكرنا معاً ووضعتُها في الغرفة الأجنبية الطراز في الطابق الأول ، ونمتُ في الطابق الاسفل في الغرفة التي ماتت فيها ماما . وهنا أخذتُ اكتب هذه المذكرات البائسة .

كازوكو ،

ليس لي أي باعث على الأمل . فوداعاً .

اني في آخر تحليل أموت موتاً طبيعياً : فالانسان لا يستطيع أن

يعيش بالمبادىء وحدها . ولي طلبٌ اليك، طلبٌ يوبكني كثيراً . أنتِ تتذكرين « كيمونو »[1] القنب التي كانت لأمي والتي عدّلتِها حتى أتمكن من لبسها في الصيف القادم ؟ تلطّفي بوضعها في نعشي .

الليل يشرف على الانتهاء والسماء أخذت تستنير . لقد عذبتكِ طويلاً . وداعاً . ان ثَمَلِي من الليلة الماضية قد انتهى تماماً . سأموتُ قانعاً .

ومرةً أخرى وداعاً ،

يا كازوكو .

انني انسان ارستقراطي .

(١) الكيمونو قميص طويل يلبسه الناس من الجنسين في اليابان (المترجم) .

- ٨ -

ضواغيط .

الناس جميعهم يتركونني .

لقد انشغلتُ بكل شيء بعد موت ناووجي . وعشتُ مـــدة شهر لوحدي في البيت الريفي .

ثم كتبتُ الى السيد اويهارا رسالة ستكون الاخيرة على الأرجح ، مع الشعور بأنها دون جدوى على الاطلاق .

« يبدو لي انك انت ايضاً تركتني . كلا بل يبدو لي على الأصح أنكَ تنساني أكثر فأكثر .

« ولكنني سعيدة . انني حبلى كما كنتُ أتمنى . لديّ شعور بأنني فقدتُ كل شيء . الا أن الكائن الصغير الذي يعيش في احشائي اصبح مصدر ابتساماتي . في وحدتي .

« انا لا استطيع أن افكر فيه على أنه «خطأ مخيف» أو أي شيء آخر من هذا القبيل . لقد توصلتُ اخيرا الى أن أفهم لمـــاذا تقوم الحرب والسلم والجمعيات والتجارة والسياسة الخ ، في العالم . أنا لا افترض أنـّكَ تعلم ذلك . ولهذا ستظل دائماً تعيسا . سأقولها لك اذن : ذلك لكي تلد النساء اطفـــالا ممتلئين صحة .

« منذ البداية لم أبنِ قطّ آمالا كبـارا على طبعك ولا على اهتمامكَ

بالمسؤوليات . لقد كان هدفي الوحيد ان احقق حلم الغرام الذي كان يملأ قلبي -
ومنذ ان استُجيبَتْ رغبتي أصبح قلبي هادئاً كغدير وسط الغابة .

« اظن انني ربحت .

« فحتى لو وَلَدَتْ مريمُ طفلا ليس من زوجها ، فانها اذا ازدَهَت بالفخار فسوف تصبح واياه اماً قديسة وابنها .

« لقد احتقرت الاخلاق عن وعي وبصيرة تامة من الامر ، وسوف أربح من ذلك في النتيجة الارتياح الى طفل جميل .

« انا أحدس انكَ منذ لقائنا الأخير ثابرتَ على حياتكَ المنحلة ، اذا صَحَّتْ تسميتها هكذا ،شاربا مع سادة وآنسات على ايقاع « يامقصلة ،يامقصلة » .
أنا لا أنوي نصحك بتغيير حياتك . فربما اصبح ذلك في آخر المطاف ،الشكلَ الذي يتخذُهُ نضالك الاخير .

« لم تعد لدي الرغبة في أن اقول لك « تخلى عن الشرب ، اعتنِ بصحتك ، عش حياة طويلة ، اعمل اشياء جميلة جدا » ، ولا في أن اوصيكَ بوصايا مرائية اخرى ، فانتَ ، وفقا لما اعلمه ، تستطيع أن تستحق امتنان الاجيال المقبلة مع مثابرتك دون انقطاع على حياتكَ المرذولة اكثر مما لو عملت اشياء جميلة جدا .

« ضحايا . ضحايا مرحلة فيها الاخلاق مؤقتة . هكذا نحن بكل تأكيد انتَ وأنا .

« ستنفجر الثورة في مكان ما ، ولكنّ الاخلاق القديمة تستمر دون

تبديل في الكون الذي يحيط بنا ، وهي تعرقل طريقنا . غير أن الكثير من الأمواج يمكن ان تتصادم على سطح البحر ، اما ماء الاعماق فلا يثور بل يبقى دون حراك ، مستيقظا وان كان يتظاهر بالنوم .

« ولكنني اعتقد انني بتورّطي للمرة الاولى استطعتُ ان أردّ الاخلاق القديمة الى الوراء ولو قليلا جدا . وانا أنوي أن اخوضَ معركةً ثانية وثالثة ومعي الولد الذي سيولد .

« أن الد طفل الرجل الذي أحبّه ، ثم أربيه ذلك سيكون تحقيق ثورتي الاخلاقية .

«وحتى لو نسيتَني ، وحتى لو كنت تهدم حياتك عن طريق الشراب ، فأنا اعتقد انني سأكون قادرة على الاستمرار في حياة سليمة في سبيل انجاز ثورتي .

« منذ زمن غير بعيد كشف لي أحدهم بالتفصيل عن شناعة مزاجك . ومع ذلك أنتَ الذي أعطيتَني هذه القوة ، أنتَ الذي وضعتَ في قلبي قوس قزح الثورة ، أنتَ الذي أعطيتَ حياتي هدفاً .

« أنا فخورة بك وأعتقد أنني سأجعل الطفل العتيد فخوراً بك .

« ابن حرام وأمه ...

« غير أننا نريد أن نحيا ، كالشمس ، رغم النضال الذي سيتوجّبُ علينا أن نخوضه في كل مكان ضد الأخلاق القديمة .

« وأنت أيضاً ، أرجوك ، حاول أن تثابر على نضالك .

« الثورة بعيـدة عن أن تنفجر . ينبغي لها المزيد ، المزيد الكثير من الضحايا القيّمة ، من الضحايا التي تستحق الاحترام .

« ليس في العالم الحالي شيء أجمل من ضحية .

« وقد كانتْ هناك ضحية صغيرة أخرى .

ياسيد اوبهارا أنا لاأنوي أبداً أن أطلب منك المزيد ، ولكن من أجل هذه الضحية الصغيرة ، أرجو منك أن تعطيني شيئاً ما ، شيئاً واحداً :

« أحب وأتمنى أن تأخذ زوجتُك طفلي بين ذراعيها ... مرةً واحـدة تكفي ... وأن تسمح لي أن أقول عندئذ « رزق ناووجي ، سرّاً ، بهـــذا الولد من امرأة ما » .

« لماذا هذا العمل ؟ اما الجواب فلا أستطيع ان اعطيه الى أحد . كلا ، أنا لستُ واثقة من المبرّر الذي يجعلني أرغب في هذه التمثيلية . ولكنني أصرّ كثيراً على أن تعملَ ذلك لأجلي . أرجوك افعله من اجل ناووجي ، هـــذه الضحية الصغيرة .

« هل أغضبتُك ؟ حتى اذا كنتَ قد غضبت ، أرجو منك أن لاتحقد عليّ من أجل ذلك . ولا ترى فيه سوى إهانةً من امرأة وحيدة ، امرأة أخذت تختفي في عالم النسيان ، وأرجو منك أن تستجيب لطلبي .

« الى M . C ممثلي المفضل . »

٢٠٠٠ / ٧ / ١٩٦٥

مطابع وزارة الثقافة والارشاد القومي

Ministère de la Culture et de l' Orientation Nationale

SOLEIL COUCHANT

roman Japonais

par

Osamu Dazaï

Traduit en arabe par

Fà'iz Bachour



Damas - 1965

مطابع وزارة الثقافة والارشاد القومي

ثمن النسخة : ١٥٠ ق.س